أيام في حياة المصطفى ﷺ



من الفجر إلى العشاء: في بيته، ومع أصحابه، وفي الحرب

إعداد

د. محمد عمارة

إهداء

إلى أمي،

متّعها الله بالصحة والعافية، وبارك لها في عمرها وعملها

هذا الكتاب صدقةٌ جاريةٌ لها، أسأل الله أن يجعل ثوابه في ميزان حسناتها

> جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحقُّ الناس بحُسن صَحابتي؟ قال: «أمُّك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمُّك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أمُّك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

> وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾
>
> سورة الإسراء : ٢٤

الفهرس

مقدمة

تمهيد: كيف يُقرأ يوم؟

الباب الأول: في مكة: من الوحي إلى العقبة

الفصل الأول — يوم حراء

الفصل الثاني — خديجة

الفصل الثالث — يوم الصفا

الفصل الرابع — وفاة أبي طالب

الفصل الخامس — يوم الطائف

الفصل السادس — ليلة الإسراء والمعراج

الفصل السابع — ليلة العقبة

الباب الثاني: الهجرة وتأسيس المدينة

الفصل الثامن — يوم الهجرة

الفصل التاسع – يوم بناء المسجد

الفصل العاشر – يوم المؤاخاة

الباب الثالث: يومه في المدينة: من الفجر إلى العشاء

الفصل الحادي عشر – قبل أن تستيقظ المدينة

الفصل الثاني عشر – في بيته

الفصل الثالث عشر – على مائدته

الفصل الرابع عشر – في المسجد مع أصحابه

الفصل الخامس عشر – يوم الجمعة ويوم العيد

الفصل السادس عشر – يوم الاستسقاء

الفصل السابع عشر – أيام رمضان

الفصل الثامن عشر – مع الصغار

الفصل التاسع عشر – أعرابيٌّ يجبذ رداءه

الفصل العشرون – ليلة «اقرأ عليّ»

الفصل الحادي والعشرون – جنازتان وقبر

الفصل الثاني والعشرون – رحمةٌ تسع كل حيّ

الفصل الثالث والعشرون – في السفر

الفصل الرابع والعشرون – آخر النهار

الباب الرابع: الغزوات والأحداث الكبرى

الفصل الخامس والعشرون — في الحرب

الفصل السادس والعشرون — يوم بدر: يوم الفرقان

الفصل السابع والعشرون — يوم أُحد

الفصل الثامن والعشرون — السيف المعلَّق

الفصل التاسع والعشرون — ليلة الأحزاب

الفصل الثلاثون — يوم الحُديبية

الفصل الحادي والثلاثون — ثُمامة بن أُثال

الفصل الثاني والثلاثون — كتابٌ إلى هرقل

الفصل الثالث والثلاثون — يوم مؤتة

الفصل الرابع والثلاثون — يوم فتح مكة

الفصل الخامس والثلاثون — غنائم حنين: الأنصار

الفصل السادس والثلاثون — الخمسون ليلة

الفصل السابع والثلاثون — شهرٌ في الغرفة

الباب الخامس: حجة الوداع والأيام الأخيرة

الفصل الثامن والثلاثون — يوم عرفة

الفصل التاسع والثلاثون — يوم النحر بمنًى

الفصل الأربعون — آخر الأيام

خاتمة: ما بين الفجرين

المراجع

مقدمة

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي بعث فينا رسولًا من أنفسنا: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾. وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ورسوله محمدٍ، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإني أقف على باب هذا الكتاب وقوف العاجز الذي أراد أن يصف القمر بالكلمات، وهو يعلم أن القمر لا يُحدّ بالكلمات. وإن نور القمر يغيب، فنور رسول الله ﷺ لا يغيب. ما أنا بعالمٍ يُؤخذ عنه، ولا بمؤرّخٍ يُحتجّ به، وإنما أنا محبٌّ قصّر به العمل ولم يقصّر به الشوق. أردتُ أن أقف عند الأبواب التي دخل منها الصحابة على رسول الله ﷺ، فأنقل ما رأوا: من هدأة ليله وصخب نهاره، ومن دفء بيته وشدّة ميدانه، ومن قيامٍ طويلٍ في سجوده وبسمةٍ أضاءت وجهه.

ولقد ترددتُ طويلًا قبل أن أكتب، فإن الكتابة عن النبي ﷺ باب عظيم الشرف، عظيم الخطر. أما شرفه فلأنك تجالس سيرةً هي أنقى ما عرفته الدنيا، وأما خطره فقد بيّنه هو ﷺ بقوله:

«من كذب عليّ متعمّدًا فليتبوّأ مقعده من النار».

— متفق عليه عن أبي هريرة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما

فلذلك جعلتُ حدّ هذا الكتاب أن لا أنسب إليه ﷺ قولًا ولا فعلًا إلا ما جاء في الصحيحين، وأن أجعل ما سوى ذلك من وصفٍ للمكان وتأمّلٍ في الحال صورةً أدبيةً أُعلنها للقارئ ولا أدّعي أنها نصّ. فإن كان فيه من صوابٍ فمن الله وحده، وله الحمد والمنّة، وإن كان فيه من خطأٍ أو زللٍ فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وأرجو من القارئ الكريم أن يردّني إلى الحق إن وجد خللًا.

ولم يكن الباعث على هذا الكتاب أن يزداد الناس علمًا بأخبار النبي ﷺ فحسب، بل أن يزدادوا له حبًّا. فإن الحبّ أقرب الطرق إلى الاتباع، ولا يتبع النبيَّ ﷺ من لا يحبّه. وقد جعل الله محبّته شرطًا لمحبة العبد ربَّه:

قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾

سورة آل عمران : ٣١

وما أحسبني بالغًا بهذه الصفحات حقَّ هذا النبي العظيم، فإنه ﷺ أكبر من كل وصف، وإنما أبذل جهد المقلّ، وأرجو أن يكون فيما كتبتُ ما يقرّب قلبًا إليه، أو يردّ غافلًا إلى هديه، أو يدفئ نفسًا أصابها برد الدنيا.

وإني لأسأل الله أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، فإنما الأعمال بالنيّات:

> «إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى».
>
> — متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وإني أختم هذه المقدمة بما أمر الله به من الصلاة على نبيّه، فهو القائل:

> إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾
>
> سورة الأحزاب : ٥٦

> «من صلّى عليّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشرًا».
>
> — رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

وقد جعلتُ هذا الكتاب صدقةً جاريةً لأمي، متّعها الله بالصحة والعافية، وبارك لها في عمرها وعملها، وجعل ما فيه من نفعٍ في ميزان حسناتها. فإن كان فيه خيرٌ فهو هديةٌ بين يديها، وإن كان فيه تقصيرٌ فعذري أنني أردتُ البرّ بما استطعت. وأسأل الله الكريم أن يجعل ثوابه لها، ولكل من قرأه أو أعان على نشره أو دعا لكاتبه.

اللهم تقبّل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى عفو ربه: محمد عمارة

تمهيد: كيف يُقرأ يوم؟

ليس في تاريخ الرجال يومٌ رُوي من أوله إلى آخره كما رُوي يوم محمد ﷺ

لا يكاد التاريخ يحفظ لعظيمٍ من العظماء يومًا كاملًا. يحفظ له معركة، أو خطبة، أو معاهدة، أو كلمة قالها وهو على أبواب الموت. أما أن يحفظ له كيف استيقظ، وبماذا بدأ، وما الذي فعله في بيته حين أغلق الباب، وكيف جلس مع الناس، وماذا قال لمّا اصطفّت الصفوف وأُسلّت السيوف، فذلك ما لم يُعرف لأحدٍ إلا للنبي العظيم ﷺ. وقد نُقلت إلينا صلاته وطعامه ومشيته وضحكته ونومته ومجلسه وبكاؤه وصمته، لا لأن أصحابه كانوا أصحاب دفاتر، بل لأنهم أيقنوا أن كل حركةٍ من حركاته درسٌ، وأن كل درسٍ منها بابٌ إلى الله.

والعقل الذي ينظر في هذه الأيام لا يملك إلا أن يسأل: كيف اجتمع في النبي العظيم ﷺ ما لا يجتمع عادةً في عشرة؟ قائدٌ يقف في الصف الأول حين يحمرّ البأس، ثم يعود إلى بيته فيخدم أهله. مُشرِّعٌ تتنزل عليه أحكام الأمم، ثم يضع في فم الصغير تمرةً قد مضغها. والنبي العظيم ﷺ يقف بين يدي ربه حتى تتورم قدماه، ثم يُقبّل الحسن بن علي ويُنكر على من لا يُقبّل أولاده. إن التناقض

الظاهر هنا ليس في النبي العظيم ﷺ، بل في أعيننا نحن التي اعتادت أن تقسم الإنسان شطرين: صلابة بلا رحمة، أو رحمة بلا صلابة.

وهذا الكتاب محاولة لأن نقف على عتبات هذه الأيام، وقد رتّبناه على حقب حياته ﷺ: يبدأ بمكة، من يوم حراء إلى ليلة العقبة، ثم الهجرة وتأسيس المدينة، ثم يومه كلّه في المدينة من الفجر إلى ما بعد العشاء، ثم الغزوات والأحداث الكبرى بحسب تاريخها، وينتهي بحجة الوداع والأيام الأخيرة. وبين هذه الأبواب ننتقل من غارٍ في جبل، إلى حجرةٍ من لبنٍ وجريد، إلى ميدانٍ تتطاير فيه الرماح. وقد حاولنا أن نجمع في الكتابة بين نظرتين: نظرةٍ تحلّل وتوازن وتقيم الحجة على الشاهد، فلا تقبل وصفًا إلا ومعه دليله، ولا تذكر خُلقًا إلا وتردّه إلى أصله، ونظرةٍ تفتح الإطار على اتساعه فترى الفجر والغبار والخيل والجماعات والحياة الصغيرة اليومية في قلب الحدث الكبير، وترى الإنسان صغيرًا وسط التاريخ الكبير وهو مع ذلك أكبر منه.

على أن للصدق شرطًا لا نتنازل عنه. كل ما جاء بين علامتي التنصيص منسوبًا إلى النبي ﷺ أو إلى صاحبٍ من أصحابه فهو نصُّ الحديث الصحيح أو قريبٌ منه جدًّا، ومصدره مذكور تحته، ومداره على البخاري ومسلم. وكل ما عدا ذلك من وصفٍ للمكان والليل والريح وخلجات النفوس فهو تصويرٌ أدبيٌّ نقف به عند حدود الثابت، ولا نُنطق به النبي ﷺ بقولٍ لم يرد، ولا نُلبسه شعورًا لم يُروَ عنه. وآياتُ القرآن منقولةٌ من المصحف بالرسم العثماني.

الباب الأول

في مكة: من الوحي إلى العقبة



الفصل الأول

يوم حراء

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ

وفي حياته ﷺ أيامٌ لا تشبه سائر الأيام، لأن التاريخ نفسه انعطف فيها. أيامٌ لو حُذفت من عمره لما بقي من الحكاية شيء. ولنبدأ من أولها، ومن أعلى الجبل.

النبي العظيم يعتزل

قبل أن يُوحى إليه بزمنٍ كان النبي العظيم، وقد بلغ الأربعين من عمره، يصعد جبلًا قريبًا من مكة، في شعابٍ يقال لها حراء، فيدخل غارًا صغيرًا لا يتّسع إلا لمن يجلس فيه أو يصلي. تحته مكة بأصنامها وأسواقها وتجارتها وأحلافها، وفوقه السماء وحدها. لم يكن قد نزل عليه كتاب، ولم يكن قد سمع باسم الرسالة. وإنما كان في قلبه شيءٌ لم يسمّه: ضيقٌ بما حوله، وحنينٌ إلى ما لا يعرف. تحدّثنا عائشة رضي الله عنها كيف بدأ ذلك:

> أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه، وهو التعبّد، الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وهذا هو الترتيب الذي ينبغي أن يتأمله العقل: رؤيا صادقة كفلق الصبح، ثم حبُّ الخلوة، ثم الليالي ذوات العدد. فلم يأتِ الوحي بغتةً على نفسٍ غافلة. كانت النفس تُهيَّأ على مهل، كما يُهيَّأ الفجر قبل الشمس. وهذا المنهج الإلهي في إعداد الرجال لما هو أعظم منهم.

اقرأ

ثم جاء اليوم. وكانت الليلة كغيرها من الليالي في غارٍ لا يعلم الناس أن فيه النبي العظيم. وفجأةً، من غير مقدمة، وقف الملك أمامه:

> فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «ما أنا بقارئ». قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: «ما أنا بقارئ». فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾

سورة العلق : ١-٥

وللعقل هنا وقفة. فإن أول كلمةٍ في آخر الكتب التي أنزلها الله على الأرض هي: اقرأ. وقد قيلت للنبي العظيم ﷺ وهو أُمّيّ، لم يخطّ كتابًا ولم يقرأه، في أمّةٍ لم يكن القراءة والكتابة من شأنها. ومع ذلك افتُتح الوحي بأمر القراءة، فصار الأمّيّ الذي لا يقرأ الخط معلّمًا للأمم أن تقرأ. وتأمل الفرق بين القراءة التي طلبها الله والقراءة التي نعرفها: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾. فهي قراءةٌ لا تنفصل عن الله، وعلمٌ لا يُكسب الإنسان غرورًا، لأنه يبدأ باسم الذي خلق، ويعلم الإنسان ما لم يعلم.

زمّلوني

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زمّلوني، زمّلوني». فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: «لقد خشيتُ على نفسي».

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

انظر كيف رجع. لم يرجع النبي العظيم مزهوًّا بأنه اختير، ولا مناديًا في الناس: جئتكم بالخبر. رجعت منه روحٌ ترتجف، يطلب أن يُغطّى، ويقول إنه خشي على نفسه. وهذه الصورة الأولى للنبوة هي أصدق ما يُقدَّم عن صدقها: فلو أن رجلًا اختلق الرسالة لجاء متباهيًا. أما هذا النبي العظيم فجاء خائفًا.

كلا والله

وتقف خديجة. لم تقل له: اهدأ، ولم تُجادله في الغيب، ولم تسأله ما الذي رأى. نظرت في حياته هو، كما تنظر في كتابٍ تعرف كل صفحة فيه منذ خمسة عشر عامًا، وقالت:

> «كلا، والله ما يُخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وفي هذا دلالةٌ كبيرة على أن الذي يُحكم له هو سيرته لا دعواه. فخديجة لم تحتج إلى دليلٍ خارج النبي العظيم نفسه. حياته هي الدليل. وخمس صفاتٍ تُغني عن كل برهان: يصل الرحم، ويحمل عن الضعيف ما لا يطيق، ويعطي من لا يملك، ويكرم الغريب، ويقف مع الحق إذا نزلت به النوازل. فمن كانت هذه حاله لا يمكن أن يُخذل. وهنا تُعلّمنا خديجة أن أعمق إيمانٍ بإنسان هو الذي يُبنى على معرفة أخلاقه لا على إعجازه.

ثم مضت به إلى ورقة بن نوفل، ابن عمها، وكان قد تنصّر في الجاهلية، وكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي. فسمع منه ورقة

ما رأى، وقال:

> هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى. يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يُخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخرجيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يُدركني يومُك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

أَوَمُخرجيَّ هم؟ سؤال النبي العظيم، وهو لا يتخيل أن يُخرج من أهله وبلده. وهو الذي كان الصادق الأمين عند قومه. وسيُخرج بعد سنين. وهذا السؤال الصغير، المندهش، المجروح، هو بذرة الهجرة التي سنصل إليها.

الفصل الثاني

خديجة

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا
وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً

مرّت بنا خديجة رضي الله عنها في صباح حراء، حين قالت لزوجها المرتجف: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا». ثم غابت من هذه الصفحات، لأنها غابت من الدنيا قبل أن تكتمل الدعوة. لكنها لم تغب من قلب النبي ﷺ. ومن أراد أن يعرف وفاءه فليسمع ما كانت تحدّث به أمنا عائشة رضي الله عنها، وقد جاءت بعدها بسنين، وسمعت من الوفاء ما لم تحتمله غيرتها.

إنها كانت وكانت

> ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة، وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطّعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة. فربما قلتُ له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأةٌ إلا خديجة! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

إنها كانت وكانت. جملةٌ لا تُفسَّر لأنها تُغني عن التفسير. هي كذا وكذا، وكلّ ما يمكن أن يُقال في امرأةٍ صدقت وآوت وواست، قد دخل في هاتين الكلمتين المكرّرتين. وانظر إلى ما كان يفعله بعد وفاتها بسنين: يذبح الشاة ويقطّعها، ويرسل لحمها إلى صديقات خديجة. لم يكن هذا واجبًا ولا عادة. هو وفاءٌ لا يريد أن يتوقف، كأنه يشكرها كل يوم بإحسانه إلى من أحبّتهم.

وكانت أمنا عائشة رضي الله عنها صريحةً مع نفسها: لم ترَ خديجة قط، لكنها غارت منها وهي ميتة. وهذا ما يجعل الحديث أصدق: أن الغيرة، وهي من أصعب المشاعر، لم تستطع أن تغيّر شيئًا في وفائه ﷺ. فلم يقل لها: لا تغاري. ولم ينكر عليها شعورها. اكتفى بأن يقول لها الحقيقة كاملة: كانت وكانت، وكان لي منها ولد.

سلامٌ من ربها

ولم يقتصر الوفاء على النبي ﷺ. فقد روى أبو هريرة أن الله نفسه ذكرها:

> أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجةُ قد أتتك، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومنّي، وبشّرها ببيتٍ في الجنة من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

سلامٌ من ربها ومن جبريل. وبيتٌ من قصب لا صخب فيه ولا نصب. لا صخب أي لا ضجيج ولا خصام، ولا نصب أي لا تعب. وكأن الجنة تكافئها على ما كانت عليه في الدنيا: بيتًا هادئًا لا يعرف الصراع، لأنها كانت في بيت النبوة هي سكينته. وفي هذا ما يقول لكل زوجةٍ صدقت وصبرت: إن لها عند الله من الكرامة ما لا تعرفه.

هالة

وكانت لخديجة أخت اسمها هالة. تقول أمنا عائشة رضي الله عنها:

> استأذنت هالةُ بنت خويلد، أختُ خديجة، على رسول الله ﷺ، فعرف استئذانَ خديجة فارتاع لذلك، فقال: «اللهم هالة بنت خويلد».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

سمع صوتًا يشبه صوت خديجة، فارتاع قلبه، كما يرتاع من لقي في الدنيا عزيزًا فقده. ولم يقل إلا: اللهم هالة. إنه الوفاء الذي لا ينسى حتى الصوت. وهذه اللفتة الصغيرة، التي لا يُعتدّ بها في كتب التاريخ، هي ما يجعل القارئ يعرف أن هذا النبي لم يكن قلبه من حجر، وأن حزنه الذي صبر عليه كان حقيقيًّا، وأن حبّه لمن أحبّ كان من النوع الذي يبقى بعد الموت.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

سورة الروم : ٢١

الفصل الثالث

يوم الصفا

وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ

مضت الدعوة زمنًا هادئةً بين قلةٍ يلتقون خفيةً، ثم جاء الأمر الذي لا مفرّ منه: أن يخرج الصوت من البيوت إلى الجبل، وأن يسمع به أقرب الناس إليه قبل أبعدهم. ولم يكن في مكة موضعٌ أوضح من الصفا، ولا يومٌ أصعب من يومٍ يقف فيه إنسانٌ على جبل ليقول لقومه ما يعلم أنهم سيكرهونه.

يا بني فِهر

لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فِهر، يا بني عَدِيّ» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش.

— متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

انظر إلى النداء. لم يبدأ بالقول إنه نبي، ولا بإعلان الدين الجديد. بدأ بأسماء بطونهم بطنًا بطنًا، كما يُنادى أهل الدار في وقت الخطر. وبلغ من اهتمامهم أن من لم يقدر على الخروج أرسل من ينوب عنه. فاجتمعت قريش كلها على سفح الجبل، تنتظر خبرًا. وما كانوا يعلمون أن الخبر الذي ينتظرونه أكبر مما يظنون.

ما جرّبنا عليك إلا صدقًا

> فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدّقيَّ؟» قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقًا. قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد».
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

وهذه من أعجب الحجج في التاريخ، وأبسطها. لم يَدعُهم إلى أن يصدّقوا ما لا تراه أعينهم. ولا استدعى برهانًا من خارج حياتهم. اكتفى بأن يسألهم عن تجربتهم هم معه: هل جرّبتم عليّ كذبًا؟ وأجابوا جميعًا بما لا يملكون إلا أن يقولوه، لأن الذي يحدّثهم هو الذي سمّوه الأمين. فكأنه يقول لهم: إن كنتم تصدّقونني إذا أخبرتكم عن خيلٍ لم تروها، أفلا تصدّقونني إذا أخبرتكم عن عذابٍ لا ترونه؟

ثم جاء الجواب من أقرب الناس إليه:

فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

— متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

سورة المسد : ١-٣

وأبو لهب عمّه. وأول من انفضّ عنه في ذلك اليوم لم يكن غريبًا ولا خصمًا من خارج الدار، بل عمٌّ من أقرب الأقربين. ولهذا كان الصفا امتحانًا من أول لحظة: هل يمضي بالدعوة إذا كان أول المعارضين فيها من أهله؟ ومضى.

لا أغني عنكم من الله شيئًا

وفي رواية أخرى من الصحيحين لما نزلت الآية نفسها، دعا قريشًا فعمّ وخصّ، فقال:

«يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا. يا بني عبد مناف، لا أُغني عنكم من الله شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا. ويا صفية عمة رسول الله، لا أُغني عنك من الله شيئًا. ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئتِ من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئًا».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

تأمّل الترتيب. بدأ بقريش عمومًا، ثم ببني عبد مناف، ثم بعمّه العباس، ثم بعمّته صفية، ثم بابنته فاطمة. كأنه يقرّب الدائرة كلما تكلم، حتى أصابت ابنته نفسها. وفي كل مرة يكرّر الحقيقة نفسها: القرابة لا تنقذ. ولا يستثني أحدًا ممن يحبهم. وفي هذا أن من يدعو الناس إلى الحق ينبغي أن يبدأ بأهل بيته، لأن من حابى أقاربه فيه لم يصدق في دعوته للناس.

الفصل الرابع

وفاة أبي طالب

إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ

كان أبو طالب عمَّ النبي ﷺ وكافله بعد جدّه عبد المطلب. رعاه صغيرًا، وحماه كبيرًا، ووقف بينه وبين قريش حين اشتدّ الأذى، ولم يُسلّمه إليهم. وكانت الدعوة في مكة تقوم في ظلّ هذه الحماية. فلما اشتدّ به المرض جاءت ساعة الوداع.

أي عمّ

والحديث في هذا المشهد رواه المسيّب بن حَزْن، وكان حاضرًا:

> لما حضرت أبا طالبٍ الوفاة جاءه رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أميّة بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: «أي عمّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله».
>
> — متفق عليه عن المسيّب بن حزن رضي الله عنه

أي عمّ. لم يخاطبه باسمه ولا بلقبه، بل بالكلمة التي يناديه بها منذ صغره. ثم قال: قل لا إله إلا الله، أي كلمةً واحدة، حتى أحتجّ بها لك عند الله. وفي هذه العبارة رجاءٌ يعرف قيمته من فقد عزيزًا: أنه لا يطلب من عمّه شيئًا لنفسه، بل يطلب منه أن يقولها لينفعه هو. كلمةٌ من الفم تكفي ليكون له عند الله حُجّة.

أترغب عن ملّة عبد المطلب؟

> فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أميّة: يا أبا طالب، أترغب عن ملّة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: هو على ملّة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله.
>
> — متفق عليه عن المسيّب بن حزن رضي الله عنه

تأمّل هذا المشهد البسيط. غرفةٌ فيها شيخٌ يحتضر، وعند رأسه ثلاثة: ابن أخيه الذي يحبه ويحبّ له الهداية، ورجلان من سادة قريش يحاولان أن يُبقيا الشيخ على ما كان عليه. والنبي ﷺ يعرض الكلمة مرة بعد مرة، وهما يعيدان عليه سؤالهما كلّ مرة. ولا يملك أبو طالب إلا أن يختار.

وفي اللحظة الأخيرة، قال: هو على ملّة عبد المطلب. لم يكن يكره ابن أخيه، وقد حماه سنين. لكن لعلّ الخوف من أن يُقال إنه خرج عن ملّة آبائه عند موته غلبه. وهذا ما يُسمّى في حياة الناس: عادةُ القوم أقوى من اليقين، والحياء من الجماعة أقوى من الحياء من الله.

لأستغفرنّ لك

> فقال النبي ﷺ: «أما والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك». فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾. وأنزل في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾.
>
> — متفق عليه عن المسيّب بن حزن رضي الله عنه

لم يكن في قلب النبي ﷺ على عمّه حقد. قال: لأستغفرنّ لك. أي سأطلب لك المغفرة حتى يمنعني الله. ولم يقل: خذلني ولا: خانني. ثم نزل التوجيه الإلهي: ليس لك أن تستغفر. وقد أطاع النبي ﷺ. لكن طاعته لم تُنقص من محبته.

والآية الثانية ميزانٌ لكل داعٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. ليس لك أن تهدي من تحب. أنت ابن أخيه، وأحقّ الناس بإنقاذه، وقد بذلت ما تستطيع من الكلام والبيان والحب. لكنّ القلوب بيد الله. وهذا هو الحدّ الذي يقف عنده الداعي: أن يبلّغ، وأن يحبّ، وأن يرجو، ثم يترك الأمر لمن بيده الهداية.

هو في ضحضاح من نار

وعرف عمّه العباس أنّ أخاه كان يحمي ابن أخيه فسأل:

> يا رسول الله، هل نفعتَ أبا طالب بشيء، فإنه كان يَحُوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضَحضاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النار».
>
> — متفق عليه عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

لم يُنكر النبي ﷺ فضل عمّه عليه، ولم يقل: هو في النار فقط. بل ذكر أن لوقوفه معه أثرًا، وأن عذابه أخفّ مما كان. فبقي الجميل يُذكر حتى في موضع الحزن. وهذا من الوفاء الذي رأيناه في خديجة، وسنراه في المُطعم بن عدي: أن النبي ﷺ لا ينسى من أحسن إليه ولو كان على غير دينه.

آخذٌ بحُجَزكم

ومن يفهم حرص النبي ﷺ في ذلك المجلس يفهم قوله الذي لا يُنسى في وصف نفسه وأمته:

> «إنما مثلي ومثلكم كمثل رجلٍ استوقد نارًا، فجعل الجنادبُ والفَراشُ يقعن فيها وهو يَذُبُّهنّ عنها، وأنا آخذٌ بحُجَزِكم عن النار، وأنتم تَفَلَّتُون من يدي».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

فراشٌ تنجذب إلى النار بجنونها، وصاحب النار يطردها ويطردها وهي تعود. هكذا كان حاله مع قومه. وحاله بجوار أبي طالب في تلك الساعة صورةٌ من هذا المثل: يمسك، ويُنادي، ويعرض الكلمة، والمحتضر يتفلّت.

وتذكر كتب السيرة أنه فقد في تلك السنوات عمّه وخديجة، فاجتمع عليه الفقد قبل الخروج إلى الطائف. وقد علّمه القرآن كيف يتحمّل الحزن على من لا يؤمن، فقال له:

> لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾
>
> سورة الشعراء : ٣

الفصل الخامس

يوم الطائف

فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

إذا سُئل أي يومٍ كان أشدّ على النبي ﷺ فلن يجيب أحدٌ بيوم أُحد، وقد جُرح وجهه وكسرت رباعيته. ولن يجيب بيوم الأحزاب، وقد جاع وعصب بطنه. فقد سألته أمنا عائشة رضي الله عنها هذا السؤال بعينه، وجاءها الجواب من فمه ﷺ:

أشدّ ما لقيت

> يا رسول الله، هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أُحد؟ قال: «لقد لقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يُجبني إلى ما أردتُ».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

لم يكن اليوم الأشدّ يومَ قتال. كان يوم ردٍّ. ذهب إلى الطائف يعرض نفسه على سادتها، يريد أن يؤووه وينصروه كما لم تفعل قريش، وكان يرجو أن يجد فيها من يسمع. لكن ابن عبد ياليل لم يُجبه إلى ما أراد. فعاد، ولم يعد كما ذهب.

> فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرن الثعالب.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

مهمومٌ على وجهي. أي ماشٍ على غير هدى، لا يدري إلى أين يمضي. والنبي ﷺ الذي علّم الناس كيف يخرجون من الهمّ، يمشي هنا والهمّ يغلبه حتى لا يدري أين هو. وهذا هو الجانب الذي لا يُحبّ كثيرٌ من الناس أن يرونه فيه: أن الألم يصيبه كما يصيبنا، وأن الردّ يوجعه، وأنه لا يُنكر ذلك. لقد أمره الله بالصبر:

ملك الجبال

> فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملكَ الجبال لتأمره بما شئتَ فيهم. فناداني ملكُ الجبال فسلّم عليّ، ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

والأخشبان جبلان يحيطان بمكة. ومعنى العرض أن يُطبَقا على أهلها فيهلكوا جميعًا. والذي يعرض هذا ملكٌ من ملائكة الله، بإذنٍ من الله، لنبيّه الذي رُدّ في الطائف وأوذي في مكة. فكل ما في الأمر أن يقول: نعم. وتنتهي مكة وأهلها. وهذا هو الامتحان الأكبر لكل مظلوم: أن يكون الانتقام في يده، وليس بينه وبينه إلا كلمة.

> فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

بل أرجو. كلمةٌ تُغلق الباب أمام الانتقام وتفتح الباب أمام المستقبل. لم يقل: أعفو عنهم، ولم يقل: لا أريد الانتقام. قال: أرجو، فجعل المسألة رجاءً لا موقفًا. كأنه ينظر إلى ظهور رجالهم، فيرى فيها أبناءً سيعبدون الله. وقد صدق رجاؤه، فقد خرج من أصلاب أهل مكة خلقٌ كثير آمنوا وحملوا الدعوة.

وهذه القصة هي التي تُعيد ترتيب الصورة كلها. فمن ظنّ أن النبي ﷺ كان يشتهي القتال فليقرأ هذا الحديث. ومن ظنّ أنه كان يضعف عند الإيذاء فليقرأه أيضًا. لقد جمع في موقفٍ واحد أقصى الألم وأقصى القدرة، ثم اختار الرحمة. وهذا هو الاختيار الذي لا يملكه إلا من كان قلبه ممتلئًا بالله.

الفصل السادس

ليلة الإسراء والمعراج

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا

ليست هذه الليلة يومًا من أيامه كسائر الأيام، فقد سار فيها ما لا تسيره قافلة ولا يحمله بعير. ومع ذلك فلا يكتمل كتابٌ عن أيامه ما لم يقف عندها، لأنها هي الليلة التي رُفع فيها من أرض الصبر إلى حيث لا تصل إليه شكوى ولا يبلغه أذى. وقد وقعت في سنوات الشدة بمكة، قبل الهجرة، حين كانت الأرض تضيق والسماء تُفتح.

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾

سورة الإسراء : ١

وتأمل في الآية كلمة واحدة: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾. لم يقل: برسوله ولا بنبيّه ولا بحبيبه. قال: بعبده. فكأن أعلى مقامٍ يُرفع إليه الإنسان هو مقام العبودية، وأن أرفع ما في هذه الرحلة ليس أنه صعد، بل أنه عبدٌ صعد بأمر ربه.

بين النائم واليقظان

ويصف ﷺ بداية الرحلة، وهي ليست بداية سفرٍ بل بداية تهيئة:

> ثم أُتيتُ بطستٍ من ذهبٍ ممتلئٍ حكمةً وإيمانًا، فأُفرغ في صدري، ثم أُطبق.
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة

قبل أن يُرفع صُدّر قلبه بالحكمة والإيمان. فكأن الرحلة تقول إن من أراد أن يرتقي فعليه أن يُملأ قلبه قبل أن يرتفع جسده. وإن الذي يصعد بلا صدرٍ مهيّأ يسقط. وهذا شأن كل مرتفعٍ في الدنيا: يعلو من يُملأ قلبه قبل أن يُرفع مقامه.

في الحِجر

وأصبح الصباح، وحدّث الناس بما رأى، فكذّبته قريش. ولنقف عند ما جرى بعد التكذيب، لأن فيه منهجًا:

> لما كذّبتني قريش قمتُ في الحِجر، فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أُخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه.
>
> — متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

لم يُجادلهم في الغيب ولا في المعراج، بل سألوه عن شيءٍ يعرفونه هم ويستطيعون التحقق منه: صفة بيت المقدس، وكانوا تجارًا يعرفون الطريق إلى الشام. فجعل يصفه لهم وهو ينظر إليه. وهكذا وضع الدعوى على محكّ ما يُتحقق منه، فمن أراد أن يصدّق الغيب فليبدأ بالشاهد.

اللبن أو الخمر

> أُتي رسول الله ﷺ ليلة أُسري به بقدحين من خمرٍ ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن. فقال جبريل: الحمد لله الذي هداك للفطرة، لو أخذتَ الخمر غوَتْ أمتك.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وبين قدحين اختار الفطرة. وليس الاختيار هنا بين حلالٍ وحرام فقط، بل بين ما يوافق خلقة الإنسان وما يعارضها. فقيل له إنه هُدي لها، وإن اختيار غيرها كان سيجرّ أمته إلى الضلال. وفي هذا أن الدين الذي جاء به لا يعارض الفطرة بل يصونها.

خمسون صلاة

وقد انتهت الرحلة إلى ما كان المقصود بها: الصلاة. فُرضت خمسين في اليوم والليلة، ثم نزل ﷺ فمرّ على موسى عليه السلام:

فقال: بم أُمرتَ؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة في اليوم، وإني والله قد جرّبتُ الناس قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة

فرجع، حتى صارت خمسًا، ونودي: «هي خمسٌ وهي خمسون، ما يُبدَّل القول لديّ». فأنت ترى أن النبي العظيم الذي صعد إلى أبعد مما يبلغه بشر لا يزال يحمل همّ أمته، وأن الصلاة لم تنزل إلى الأرض بوحيٍ في غار، بل فُرضت في السماء، كأن الله أراد أن يكون المؤمن في كل صلاةٍ على موعدٍ مع ما رأى نبيّه في تلك الليلة. وقد ذكر القرآن مما رآه عند سدرة المنتهى:

إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

سورة النجم : ١٦-١٨

ومن هنا يقول من يتأمل: إن الإسراء كان ليلةً واحدة، وأما أثره فيبقى في الأمة كل يوم خمس مرات. فمن أراد أن يشارك في المعراج فليُقم الصلاة. فكأن هذه العلاقة بين الأرض والسماء التي فُتحت في تلك الليلة لم تُغلق، بل صارت باب كل عبد.

الفصل السابع

ليلة العقبة

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ

قبل الهجرة بزمن، وفي موسم الحج، كانت قوافل العرب تأتي إلى مكة من كل ناحية، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويقول: من يؤويني؟ من ينصرني؟ فلا يجد إلا الصدّ. ثم جاءت ليلةٌ في العقبة بمنى، لا يعرف الناس عنها شيئًا، التقى فيها بنفرٍ من أهل يثرب، فكانت أول نقطةٍ في طريق المدينة.

ولم تكن هذه الليلة ليلة سيوفٍ ولا تحالفاتٍ قبلية. فلنسمع عبادة بن الصامت، وكان من النقباء الذين شهدوها، كيف روى ما قيل:

بايعوني

> أن رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابةٌ من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارةٌ له».
>
> — متفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه

تأمّل مضمون هذه البيعة. لم يقل لهم: ادخلوا في حلفٍ ضد قريش، ولا: احملوا السلاح معي، ولا: امنحوني الحكم. بل قال: لا تشركوا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تفتروا بهتانًا. أي أن أول عهدٍ بينه وبين من سيحتضنون دعوته لم يكن عهد سياسةٍ ولا غزو، بل عهد أخلاق. وكأنه يقول إن الذي يؤويني يجب أن يكون أهلًا لما سأبنيه: إنسانًا لا يسرق ولا يكذب ولا يغدر.

وفيها أيضًا جانبٌ من الرحمة لا يخطئه القارئ: «من أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارةٌ له». فالذي يخطئ ثم تُقام عليه العقوبة تكون له كفارةً، فلا يُعيَّر بعدها. وهذا من أرقّ ما في شريعته: أن العقوبة في الدنيا تطهّر صاحبها، وأن الستر باب رجاء.

أن نقول الحق

وللمعنى نفسه في رواية أخرى لعبادة، فيها شروطٌ أوضح للسمع والطاعة، وفيها قيدٌ لا يُنسى:

> بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المَنشَط والمكَرَه، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.
>
> — متفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه

سمعٌ وطاعة، لكنها لا تُلغي الحق. فمن بايع هذا النبي لم يبايع على أن يسكت، بل على أن يقول الحق أينما كان، ولو لم يرضَ عنه أحد. وهذا ما جعل الأنصار يومئذ يخاطرون بكل شيء: أن يفتحوا بيوتهم للنبي العظيم الذي طاردته قريش، وأن يدخلوا في حربٍ مع من لا يستطيع أحدٌ مواجهتهم.

وما أحبّ أنّ لي بها بدرًا

ويحدثنا كعب بن مالك، الذي سنقف عند قصته في ليالي المقاطعة الخمسين، عن شعوره حين يتذكّر هذه الليلة وهو شيخٌ كبير:

> ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها.
>
> — متفق عليه عن كعب بن مالك رضي الله عنه

بدرٌ كانت ملحمةً شهدتها الدنيا، وذكراها تُملأ بها الكتب. أما العقبة فكانت ليلةً في الظلام، لا سلاح فيها ولا جموع. ومع ذلك لا يبدّلها كعبٌ بالنصر العظيم. وهذا لأن العقبة هي التي سبقت بدرًا: هي الميثاق، وبدرٌ هي الوفاء. ومن أدرك قيمة الميثاق عرف أن أعظم لحظات التاريخ قد تكون ليلةً صامتة بين نفرٍ لا يعلم بهم أحد.

الباب الثاني

الهجرة وتأسيس المدينة



الفصل الثامن

يوم الهجرة

إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا

وبعد ثلاث عشرة سنة من يوم حراء، ضاقت مكة على أهل الإيمان حتى لم يبق لهم فيها مقام. وهاجر من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة أفواجًا، وبقي رسول الله ﷺ ينتظر الإذن من ربه. وجاء الإذن، وجاء اليوم الذي لا يُنسى.

في نحر الظهيرة

تروي عائشة، وكانت صغيرة في بيت أبيها، ما جرى يومها:

> فبينما نحن يومًا جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتقنّعًا، في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.
>
> — رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وساعة الظهيرة في مكة ساعة حرٍّ لا يخرج فيها أحد. ولهذا جاء متقنّعًا، أي مغطّي رأسه ووجهه، لئلا يراه من يعرفه. وكان من عادته أن يأتي بيت أبي بكر في أول النهار أو آخره، فلما جاء في الظهيرة علم أبو بكر أن الأمر عظيم. ثم خرج من عنده من كان في البيت، وقال النبي ﷺ: «فإنه قد أُذن لي في الخروج». فقال أبو بكر: الصُّحبة يا رسول الله؟ قال: «الصُّحبة».

> فوالله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.
>
> — رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

رجلان يتهيآن لأخطر رحلةٍ في تاريخ الإسلام، وتركٌ للبيت والأهل والمال، وطلبٌ من قريش على رأس كل منهما. وأحدهما يبكي فرحًا لأنه سيرافق الآخر. وقد كان الأقرب إلى النفس أن يبكي خوفًا. لكن أبا بكر بكى لأن الحلم الذي انتظره سنين كان في أن يُختار صاحبًا. وليس في تاريخ الصداقة صفحةٌ أنقى من هذه.

وجهّزوا لهما الزاد في سفرة، فلم تجد أسماء بنت أبي بكر ما تربط به فم الجراب، فشقّت نطاقها نصفين، فربطت بواحدٍ الزاد، وانتطقت بالآخر. فسُمّيت: ذات النطاقين.

في الغار

مضيا ليلًا إلى غار ثور، جنوب مكة، في اتجاه معاكس تمامًا للمدينة التي يريدانها. وأقاما فيه ثلاث ليال. وفي الغار حدث ما حفظه أبو بكر في ذاكرته

إلى آخر عمره:

> قلتُ للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين اللهُ ثالثهما؟»
>
> — متفق عليه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وقد خلّد القرآن ذلك:

> إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾
>
> سورة التوبة : ٤٠

والمشهد هنا لوحةٌ تُرى بالعين قبل أن تُقرأ: كهفٌ ضيّق ونورٌ ضعيف، وفي الخارج أقدامٌ تدبّ حول الغار، وفي الداخل رجلان لا يملكان سلاحًا. أحدهما خائفٌ على صاحبه لا على نفسه، والآخر هادئٌ مطمئن، لا لأن الخطر غير موجود بل لأن معه من لا يغيب. وكان الخوف الذي في صدر أبي بكر عظيمًا،

لكنه بُدّد بجملةٍ واحدة. وكأن أمانه لم يُبنَ على أن الأعداء لا يرونه، بل على أن الله معه إن رأوه.

سراقة

وخرجا من الغار، وقد جعلت قريش مئة ناقةٍ لمن يأتي بأحدهما. فلحق بهما سراقة بن مالك المُدلجي، وهو فارسٌ ماهر يطمع في الجائزة. فلما اقترب منهما غاصت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها. فعلم أن بينه وبين الرجلين مانعًا، فنادى بالأمان. وجعل بعد ذلك لا يلقى أحدًا من الطلب إلا ردّه، وقال: كُفيتم ما هنا.

وتأمل التحوّل: الصائد صار حارسًا، والفارس الذي خرج ليأسر النبي العظيم عاد يمنع الناس من اتباعه. ولا يجري هذا إلا حين تكون قدرة الله فوق قدرة المتآمرين. وأسلم سراقة بعد ذلك.

هذا رسول الله قد جاء

وبعد أيام وصلا إلى المدينة. وقد روى البراء بن عازب ما رآه من فرح أهلها:

> فما رأيتُ أهل المدينة فرحوا بشيءٍ فرحهم برسول الله ﷺ، حتى رأيتُ الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء.
>
> — رواه مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

ثم دخل إلى بيت أبي أيوب الأنصاري، وبدأ البناء. وكانت الهجرة، كما رأى الذين تأمّلوا فيها، أكثر من انتقالٍ من مدينة إلى مدينة. فقد نقلت الدعوة من مرحلة الضعف والصبر إلى مرحلة الدولة والتأسيس. وقد قالت عائشة إن النبي ﷺ دعا قائلًا:

> «اللهم حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة أو أشدّ».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

لم يقل: انسَ مكة. قال: كما أحببنا مكة. ولهذا فإن الغريب الذي يحمل في قلبه وطنًا لا يطلب أن يمحوه، بل يطلب أن يتسع قلبه لوطنٍ آخر بجانبه.

الفصل التاسع

يوم بناء المسجد

لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ

دخل المدينة، ونزل أول ما نزل في بني عمرو بن عوف، ثم ركب راحلته وسار نحو قلب المدينة، وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله بسيوفهم، حتى نزل بفناء أبي أيوب الأنصاري. وكان أول ما فكّر فيه بعدها ليس بيتًا ولا حصنًا ولا سوقًا. كان مسجدًا.

ثامنوني بحائطكم

> ثم أمر ﷺ ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فقال: «يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا». قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.
>
> — رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أي بِعْنيه بثمنه. لم يقل: خذوه. ولا: هو لي. بل قال: حدّدوا الثمن. لأنه لا يريد أن يأخذ شبرًا بغير حقه ولو كان لبناء المسجد. فردّوا عليه بما لا يردّ عليه: لا نطلب ثمنه إلا من الله. وقد قال أنس إن في هذه الأرض قبورًا للمشركين، وخِربًا، ونخلًا. فأمر ﷺ بالقبور فنُبشت، وبالخرب فسُوّيت، وبالنخل فقُطع.

ثم يجيء المشهد الذي لا يغيب عن ذهن من قرأه:

> فصفّوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون، والنبي ﷺ معهم، وهو يقول: «اللهم لا خير إلا خير الآخرة، فانصر الأنصار والمهاجرة».
>
> — رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

والنبي ﷺ معهم. جملةٌ قصيرة بين فاصلتين، لكنها تفتح الصورة كلها. فهذا مسجده الذي سيُصلّي فيه الأجيال، سيجتمع فيه الناس لخطبة الجمعة والعيد، وسيجلس فيه أهل الصُّفّة ويقصّ فيه الأصحاب أحلامهم، وسيكون برلمانًا ومحكمةً ومعهدًا ومأوى. وأول ما بُني فيه جذوع النخل وحجارة الأرض، بأيدي أهل المدينة، ومعهم النبي العظيم ﷺ ينقل الصخر مثلهم، ويرتجز كما يرتجزون، ويدعو كما يدعو كل عاملٍ يتعب.

لبنة لبنة

ويصف أبو سعيد الخدري ما رآه في أيام البناء:

كنا نحمل لَبِنةً لَبِنةً، وعمّارٌ لَبِنتين لَبِنتين، فرآه النبي ﷺ، فجعل ينفض التراب عنه ...

— رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

عمّارٌ كان يحمل لبنتين لبنتين، أي ضعف ما يحمل غيره، رغبةً في الأجر. فمرّ به النبي ﷺ، ورأى الغبار على وجهه وثوبه، فلم يمرّ مرور الكرام. وقف يمسح عنه التراب بيده. فالقائد في ذلك المشهد لم يكن واقفًا يوزّع الأعمال، بل كان يخدم وهو في وسط الصفّ.

وبهذا نعرف لماذا أحبّه الناس. لقد وجدوا فيه من يحمل معهم، ومن يدعو لهم، ومن ينظف الغبار عن وجوههم. وفي مثل هذه الصغائر تُكسب قلوب الناس. وقد قال القرآن في هذا المسجد وما كان فيه:

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ۚ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

سورة التوبة : ١٠٨

الفصل العاشر

يوم المؤاخاة

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

وصل المهاجرون إلى المدينة وقد تركوا مكة بما فيها: البيوت والتجارة والأهل. وكان في المدينة أهلٌ فتحوا لهم الأبواب. لكن ترك الدار شيء، وصنع مجتمعٍ جديد شيءٌ آخر. وكان لا بد من خطوةٍ تحوّل الضيافة إلى أخوّة، والغريب إلى أخ. فآخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل مهاجرٍ أخًا من أهل المدينة.

دلّوني على السوق

ويروي لنا أنس بن مالك قصةً من هذه الأخوّة، هي من أروع ما في الباب:

قدِم عبد الرحمن بن عوف المدينة، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلّوني على السوق. فأتى السوق فربح شيئًا من أَقِطٍ وسمن.

— رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

مشهدان في جملةٍ واحدة. الأنصاري يعرض نصف ما يملك، وهذا كرمٌ لا يُقاس بالمال. والمهاجر يرفض، ولا يرفض كبرًا ولا ازدراءً بالعرض. بل يدعو لأخيه بالبركة، ثم يسأل عن السوق. أي: أنا لا أريد أن أعيش على ما تعبتَ فيه. أريد أن أبدأ من حيث تبدأ، بعملٍ من يدي.

وكان عبد الرحمن تاجرًا في مكة. فلما فقد المال لم يفقد المهارة. ومضى إلى السوق يبيع ويشتري. وبعد حين رآه النبي ﷺ وعليه أثر صفرة، فسأله:

«مهيم؟» قال: تزوّجتُ امرأةً على وزن نواةٍ من ذهب. قال: «بارك الله لك، أَوْلِم ولو بشاة».

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وفي هذه القصة ما يكشف روح المجتمع الذي بناه ﷺ: أن يعطي القادر بلا منّة، وأن يأخذ المحتاج بلا ذلّة، وأن يبدأ كلٌّ من حيث يقدر على أن يقف بنفسه. لا يتسول المهاجر ولا يتأفف الأنصاري. وكل ما هنالك أن الإيمان جعلهما إخوة.

اقسم بيننا النخيل

وكما أراد الأنصار أن يقتسموا مع إخوانهم البيوت والأموال، أرادوا أن يقتسموا الأرض. يروي أبو هريرة:

> قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا».
> فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا.
>
> — رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

فلم يقسم النخيل بينهم، وإنما اقترح الأنصار على إخوانهم حلًّا ثالثًا: أن يبقى الملك لأهله، ويعمل المهاجرون في الأرض فيشاركوا في الثمرة. فلم يُظلم الأنصار، ولم يُترك المهاجرون بلا رزق. وقد وصف القرآن الفريقين معًا: المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم، والأنصار الذين آووهم:

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ
وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

سورة الحشر : ٨-٩

الباب الثالث

يومه في المدينة: من الفجر إلى العشاء



الفصل الحادي عشر

قبل أن تستيقظ المدينة

وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ

في آخر الليل تكون المدينة كأنها جسدٌ نائمٌ لم يبلغه الصباح بعد. بعيدًا في الحرّة الشرقية تلمع النجوم على حجارتها السوداء، وفي الوادي تنام الإبل باركةً حول الآبار، والغلّة في الأكياس قليلة والصبر كثير. النخيل ساكنٌ إلا من حفيفٍ خفيف. البيوت الطينية الصغيرة ملتصقةٌ بجدار المسجد وأبوابها تُطلّ عليه.

وفي أحد هذه البيوت، في ليلةٍ من الليالي، كان غلامٌ في نحو العاشرة من عمره يتظاهر بالنوم. هو عبد الله بن عباس، ابن عم النبي ﷺ، وقد بات عند خالته ميمونة وهو يريد شيئًا واحدًا: أن يرى كيف يصلي رسول الله ﷺ بالليل. اضطجع الغلام في عرض الوسادة. ومرّ من الليل ما شاء الله أن يمرّ، والغلام يكاد يغلبه النوم ويقاوم، حتى انتصف الليل أو قاربه، فاستيقظ النبي ﷺ.

ويا لها من لحظةٍ لو كان في الدنيا من يصورها! النبي العظيم ﷺ، وقد جاوز الخمسين، جلس على فراشه وجعل يمسح النوم عن وجهه بيده. ثم رفع بصره إلى السماء وتلا أواخر سورة آل عمران:

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

سورة آل عمران : ١٩٠-١٩١

قال ابن عباس: ثم قام فتوضأ من قربةٍ معلّقة وضوءًا خفيفًا، ثم قام يصلي. فقمتُ فصنعتُ مثل ما صنع، وذهبتُ فقمتُ إلى جنبه، فوضع يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها، فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين، ثم أوتر، ثم اضطجع حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح.

فقام النبي ﷺ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شنٍّ معلّقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ثم قام يصلي... فوضع يده اليمنى على رأسي وأخذ بأذني اليمنى يفتلها.

— رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس

يد على رأس غلام

هذا النبي العظيم يقف بين يدي ربه في أخص لحظات عمره، ومع ذلك لا يغيب عن الغلام الواقف بجواره. إنه لا يزجره ولا يبعده، ولا ينقطع عن صلاته ليلقنه. يضع يده على رأسه ويفتل أذنه، وهي حركة من يطمئن صغيرًا في عتمة الليل أن أحدًا معه. وفي هذا وحده ما يُسقط ذلك الوهم القديم الذي يجعل العبادة انغلاقًا على الذات وقطعًا للصلة بالناس. إن أعمق الخلوات عند النبي ﷺ لم تكن تُغلق بابها على إنسانٍ يحتاج إليه.

لماذا يقوم من غُفر له؟

وللعقل هنا سؤالٌ لا مفرّ منه، سألته عائشة رضي الله عنها يومًا وقد رأت قدميه تتشققان من طول القيام.

> كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، فقلتُ له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا؟»
>
> — متفق عليه عن عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما

فجوابه ﷺ يقرّر أن العبادة عنده ليست أجرةً تُدفع ولا ثمنًا يُسدَّد. فلو كانت صلاته ثمنًا لمغفرةٍ لسقطت عنه بعد أن غُفر له، لكنها كانت شكرًا، والشكر لا ينتهي بانتهاء النعمة بل يزيد بها. ومن هنا كان الفرق بين أن يصلي الإنسان ليُعفى من العقاب، وأن يصلي لأنه لا يطيق أن يمرّ عليه عطاءٌ دون أن يقول: شكرًا. وقد كان الله يأمره بهذا من قبل[59] أن يأمر به أحدًا:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾

سورة المزمل : ١-٤

وإن في قوله ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ لَسِرَّ اليوم كله. فالرجل الذي سيقود جيشًا ويحكم مدينة ويقضي بين خصومها يبدأ يومه بأن يتمهل في كلمات ربه كلمةً كلمة. كأن الحكمة الأولى التي يتعلمها الحاكم قبل أي شيء: أن يتعلم كيف يتوقف، وكيف يسمع، وكيف يقول للعجلة: ليس الآن.

السواك، والاستيقاظ، وركعتان

وفي كل خطوةٍ من خطوات هذا الفجر تفصيلٌ صغير تتوقف عنده الذاكرة. كان إذا قام من الليل يدلك فمه بالسواك، حتى إنه قال ﷺ: «لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وكان إذا استيقظ قال ما حفظه عنه حذيفة: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». فانظر كيف سمّى النوم موتًا صغيرًا، والاستيقاظَ بعثًا صغيرًا، فصار كل صباحٍ عنده بروفةً مصغّرة ليوم القيامة.

> كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يَشُوصُ فاه بالسواك.
>
> — متفق عليه عن حذيفة رضي الله عنه

> كان النبي ﷺ إذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».
>
> — رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

وأما ركعتا الفجر فكانت أشد ما حافظ عليه من النوافل. قالت عائشة:

> لم يكن النبي ﷺ على شيءٍ من النوافل أشدَّ تعاهدًا منه على ركعتي الفجر.
>
> — متفق عليه

> ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها.
>
> — رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

ها هنا يتقاطع الجلال والحياة الزوجية: النبي العظيم الذي سيقود الأمة في صلاة الصبح يقضي دقائق الفجر الأخيرة يتحدث إلى زوجته إن كانت مستيقظة. لم يكن في بيته نبيًّا كل ساعة بالمعنى الذي يتخيله من لا يعرف، بل كان نبيًّا إنسانًا قبل أن يكون.

ثم ينطلق صوت بلال في السماء الداكنة، فيتحرك الحي كله. يُفتح باب ويُغلق آخر. تتلاقى الخطى على الطرق الترابية الضيقة. ويخرج النبي ﷺ إلى المسجد، وقد أنهى في نحو ساعةٍ أو ساعتين ما لا يُنهيه غيره في عمر: علاقةً مع ربه، وعلاقةً مع أهله، وعلاقةً مع غلامٍ نائمٍ كاد أن يُنسى.

والتحليل المنصف لهذا الفجر يقف عند ثلاث ملاحظات. أولاها الانتظام: فالعبادة عنده لا تأتي على هوى النشاط، بل لها وقتٌ معلوم يُلزم نفسه به كما يلزمها القائد بموعد المعركة. وثانيتها البساطة: وضوءٌ من قربةٍ معلّقة، وفراشٌ من أدم حشوه ليف، وغلامٌ في عرض الوسادة، فليس في الأمر طقسٌ مصطنع ولا مشهدٌ يُعدّ للناظرين. وثالثتها التوازن: فلم يكن القيام يُنسيه حقّ الأهل ولا حقّ الصغير، ولا كان حقّ الأهل يصرفه عن القيام. وهذه الثلاثة هي ما يسميه علماء النفس اليوم انضباط الذات، وما سمّاه القرآن أول ما سمّاه: تزكية.

الفصل الثاني عشر

في بيته

لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ

لو أردنا أن نعرف رجلًا على حقيقته فلننظر إليه حين لا يكون أمامه جمهور. فللبطل عند الناس وجهٌ وعند أهله وجهٌ آخر، وكثيرٌ من العظماء تنكشف عظمتهم كسرابٍ حين يُغلق الباب. فماذا وجد أهل بيت النبي ﷺ حين أُغلق الباب؟ لقد سُئلت عائشة رضي الله عنها هذا السؤال بعينه، وجاء جوابها قصيرًا كأنه تقرير طبيب.

> سُئلت عائشة: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة».
>
> — رواه البخاري

مهنةُ أهله: أي في خدمتهم وأعمال البيت. اكتفت عائشة بهذه الجملة، وما أعظم ما فيها. إن من يُنتظر وحيُ السماء على لسانه لا يجد غضاضةً في أن يكون في عمل البيت، وإن من يملك أن يأمر الناس كلهم لا يتكئ على أحدٍ في بيته.

والفاصل عنده بين عمل البيت وعمل الدعوة ليس فاصل المقام، بل فاصل الوقت: فإذا أذن المؤذن ترك هذا وذهب إلى ذاك، فلا مقام أعلى يتعالى به، ولا مقام أدنى يأنف منه.

عشر سنين وكلمة واحدة لم تُقل

وشاهدٌ آخر من داخل البيت، هو أنس بن مالك، الذي جاء إلى النبي ﷺ صبيًّا في العاشرة فخدمه عشر سنين. فإذا قلتَ: إن أشد ما يكشف الطبع هو الخدمة الطويلة، فقد سكب أنس في ذلك كلمةً ما زالت تهزّ القلب:

> خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيءٍ صنعتُه: لِمَ صنعتَه؟ ولا لشيءٍ تركتُه: لِمَ تركتَه؟
>
> — متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

وتأمل أن أنسًا كان صبيًّا، والصبيان يكسرون ويتلفون ويتأخرون وينسون. عشر سنين في بيت النبي العظيم، وعليه عبء الدنيا كلها، ولا كلمة ضجر واحدة. هذا ليس مزاجًا هادئًا فحسب، فالمزاج الهادئ قد ينفد مع الضغط. هذا شيء آخر: إنه حلمٌ بنته العقيدة، وصبرٌ رأى أن الإنسان الصغير أمانةٌ عند الكبير.

وعائشة تقول ما يُكمل هذه الصورة:

> ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأةً ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله.
>
> — رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

> ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

الأسودان

قالت عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة:

> والله يا ابن أختي، إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلّةٍ في شهرين، وما أُوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار. قلتُ: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ثلاثة أهلّة في شهرين، أي نحو ستين يومًا لا تُوقد نارٌ في بيتٍ واحد. لا خبز ولا طبيخ. تمرٌ وماء. والنبي ﷺ يملك أن يملأ بيوته لو أراد، فقد جاءته الغنائم من خيبر وحنين ومن غيرهما. لكنه كان يُخرجها كلها، فما بقي في بيته منها إلا القليل. وهنا يتقدم السؤال الذي لا تخلو منه ترجمة لعظيم: أي نفسٍ هذه التي تملك القدرة على الترف فتصرف وجهها عنه؟ إن الفقير الذي لا يجد لا فضل

له في ترك الدنيا، أما الذي تُفتح له الدنيا فيُغلقها بيده، فهذا الذي يُقال فيه إنه وقف على أعلى درجات الزهد.

على أن هذا الزهد لم يكن عبوسًا. فقد كان ﷺ يحب الحلواء والعسل، كما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها، ولم يرَ في ذلك منافاةً لدينه. فالزاهد عنده لا يُحرِّم الطيبات، بل لا يُسلِّم لها قلبه. ومن تأمل هذه الثنائية أدرك أن أصعب الأمور ليست في الحرمان ولا في الإفراط، وإنما في ذلك الميزان الدقيق الذي لا يقدر عليه إلا إنسانٌ بلغ تمام التوازن.

> كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل.
>
> — رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وهي تنظر إلى الحبشة

وأجمل ما في هذه الحياة البيتية مشهد ذلك اليوم الذي جاء فيه الحبشة يلعبون بحرابهم في المسجد، في يوم عيد. ولنترك أمنا عائشة رضي الله عنها تحكيه:

> رأيتُ النبي ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

هنا النبي العظيم واقفٌ في وجه الريح يسترها بردائه، وقد بلغ ما بلغ من المقام، ويطيل الوقوف لأن زوجته ما زالت تحب أن تنظر. يقف حتى تكون هي التي

تمل. ولو أن قائدًا من قادة الأمم وقف على هذا النحو لصار خبره أسطورةً تُحكى عبر الأجيال، لكن الرواة ذكروه هنا عرضًا في سياق رواية أخرى، كأنه أمرٌ عادي في ذلك البيت.

> لا يَفرَك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر.
>
> — رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

> استوصوا بالنساء خيرًا.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ومن هذه المشاهد الصغيرة نفهم لماذا كانت الشهادة القرآنية له جامعة مانعة، نزلت في مكة وهو لم يُكمل طريقه بعد:

> وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾
>
> سورة القلم : ٤

والخُلق العظيم في البيت ليس أن يُحسن الزوج إذا أقبل الناس. هو أن يُحسن حين يغيب الناس، وهذا هو الامتحان الذي لا يجتازه إلا من كان إحسانه عنده طبعًا لا موقفًا. وقد اجتازه النبي ﷺ عشرات السنين، وشهد له من عاشوا معه في السراء والضراء والجوع والغنى.

الفصل الثالث عشر

على مائدته

❦

وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا

للمائدة في حياة الناس لغةٌ لا تكذب. فالرجل قد يتحكّم في وجهه وكلامه، لكنه حين يجلس إلى الطعام تظهر طبيعته: شرهٌ أم قنوع، متكبرٌ أم متواضع، يبحث عن نفسه أم عمّن حوله.

لا يعيب طعامًا

> ما عاب رسول الله ﷺ طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وتأمل ما في هذه الجملة من أدبٍ لا يُلتفت إليه. إن في كل بيتٍ طعامًا لا يعجب بعض الآكلين، وفي كل مائدةٍ من يحتقر ما قُدّم إليه فيجرح من أعدّه. أما هو ﷺ فلا يأكل ما لا يشتهي ولا يذمّه، يتركه ويسكت، فلا يشعر صاحبة البيت بأنها قصّرت. وقد جاءه ذات مرة طعام الضبّ فلم يأكله، وأكله

الصحابة على مائدته، فقال: إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه. تركه من غير أن ينهى عنه ولا أن يُنفّر منه.

يا غلام، سمِّ الله

وكان عمر بن أبي سلمة ربيبه، غلامًا صغيرًا في حِجر رسول الله ﷺ، يأكل معه ويده تطيش في الصحفة، أي تتحرك هنا وهناك، فتصيب من كل جانب. ولو كان الأمر عند غيره لانفجر الأب أو الزوج غضبًا من الفوضى. لكنه ﷺ قال له قولةً صارت أدبًا للمسلمين كلهم:

> «يا غلام، سمِّ الله، وكل بيمينك، وكلْ مما يليك». قال عمر: فما زالت تلك طِعْمتي بعد.
>
> — متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه

ثلاث وصايا في جملةٍ واحدة، وفي كلمتين لطيفتين في أولها ما يُغني عن الزجر. لم يقل: أنت تأكل بشكلٍ سيئ. قال: يا غلام، فناداه بالاسم الذي يحبه الصغار حين يُنادَون به من كبير، ثم أرشده. وقال عمر بعد ذلك: ما زالت تلك طعمتي بعد. أي أن كلمةً هادئةً واحدة غيّرت عادةً مدى العمر.

ثلاث ليالٍ تباعًا

وإذا أردنا أن نعرف ما كان على هذه المائدة فلنسمع أمنا عائشة رضي الله عنها وقد عاشت معه قرابة تسع سنين:

ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام بُرٍّ ثلاث ليالٍ تباعًا حتى قُبض.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وليس هذا البيت بيت حرمانٍ ولا شكوى، بل كان في رضاه أوسع من قصور كثيرة. ثم إن ضيق ذات اليد لم يمنعه من الكرم، وإنما صنع منه كرمًا خاصًّا لا يعرفه إلا من لا يملك. كان ﷺ يقول فيما رواه جابر:

«طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية».

— رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

هذه ليست حسابات اقتصادية، وإنما هي هندسةٌ للقلوب: أن يتقاسم الناس القليل فيصير كثيرًا، وأن تنفتح موائدهم على من هو أقل منهم. وفي هذا المبدأ سرّ مجتمعٍ كان فقيرًا فصنع ما لم يصنعه الأغنياء. وقد جعل ذلك أصلًا في الضيافة:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

قدحُ اللبن

ولعل أجمل ما رُوي في هذا الباب قصة أبي هريرة، وهو يرويها عن نفسه بصدقٍ لا يخجل. كان الجوع قد بلغ منه مبلغًا حتى إنه ليسأل الصحابة عن آيةٍ هو أعلم بها منهم، يرجو أن يفهموا حاجته فيطعموه. مرّ عليه أبو بكر فسأله عن آية فلم يفهم، ومرّ عمر فسأله فلم يفهم. ثم مرّ رسول الله ﷺ، فعرف ما في وجهه وما في نفسه من أول نظرة، فتبسّم وقال: «أبا هِرّ». قال: لبّيك يا رسول الله. قال: «الحق».

ومضى به إلى البيت، فاستأذن فأُذن له، فوجد لبنًا في قدح. فسأل أهل البيت: من أين لكم هذا اللبن؟ قالوا: أهداه لك فلانٌ أو فلانة. فقال: «أبا هِرّ». قال: لبّيك يا رسول الله. قال: «الحق إلى أهل الصُّفّة فادعهم لي».

وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا أهل لهم ولا مال، ينامون في ظلة المسجد. وفي قلب أبي هريرة غمٌّ لا يُخفيه: ما هذا اللبن بين أهل الصفة؟ كنتُ أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوّى بها، فإذا جاء القوم كنتُ أنا الذي أُديرهم عليهم، فما عسى أن يبلغني من هذا اللبن؟ ولكن من طاعة الله وطاعة رسوله بُدّ، فأتاهم فدعاهم، فأقبلوا واستأذنوا فأُذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال أبو هريرة: ثم قال: «يا أبا هِرّ، خذ فأعطهم». فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردّه إليّ، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، حتى انتهيت إلى النبي ﷺ، وقد روي القوم كلهم. فأخذ القدح فوضعه على يده، ونظر إليّ فتبسّم وقال: «أبا هِرّ». قلت: لبّيك يا رسول الله. قال: «بقيتُ أنا وأنت». قلت: صدقت يا رسول الله. قال: «اقعد فاشرب». فقعدت فشربت. فقال: «اشرب»، فشربت. فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا

والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكًا. قال: «فأرني». فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة.

> فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة.
>
> — رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

انظر إلى ترتيب الشرب: أهل الصفة أولًا، ثم أبو هريرة، ثم هو في الآخر، يشرب الفضلة ويحمد الله ويسمّي. وهذا الذي تسمّيه الأخلاق الحديثة إيثارًا هو عنده نظامٌ عام: القائد آخر من يأكل، والجائع قبل الشبعان، والصغير قبل الكبير. وكان قد عرف جوع أبي هريرة من وجهه قبل أن يشكو. وقد وصف القرآن هؤلاء الذين يطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، فكان هو أول من تجسّد فيه هذا الوصف:

> وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾
>
> سورة الانسان : ٨-٩

الفصل الرابع عشر

في المسجد مع أصحابه

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

ينقضي الصبح بتكبير الصلاة، وقد اجتمع في المسجد أهل المدينة: مهاجرون تركوا أموالهم ودورهم في مكة، وأنصار فتحوا لهم القلوب قبل البيوت، وفقراء من أهل الصُّفّة ينامون في المسجد لا يملكون غيره، وأعراب قدموا من البوادي ولا يعرفون بعدُ آداب المدينة. فإذا انتهت الصلاة لم يقم النبي ﷺ من مصلاه حتى تطلع الشمس.

> كان لا يقوم من مصلّاه الذي صلّى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام.
>
> — رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه

وفي هذا الجلوس ما يُشبه مجلس القيادة الأول، وكان أول ما يفتتح به هذا المجلس سؤالًا لطيفًا عن رؤى أصحابه، كما رواه سمرة بن جندب:

كان النبي ﷺ مما يُكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحدٌ منكم من رؤيا؟» قال: فيقصّ عليه من شاء الله أن يقصّ.

— رواه البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه

يسألهم عن أحلامهم. وفي هذه الجملة وحدها ما يقول إن هذا النبي العظيم لا يريد من أتباعه أجسادًا تُطيع بل نفوسًا تُحَدِّث. إنه يريد أن يعرف ما في داخلهم، ويفتح لهم باب البوح صباحًا. وتخيّل مجلسًا فيه أعرابيٌّ خشن وفتًى مدلل وشيخٌ من كبار قريش، كلهم يقصون ما رأوا في النوم أمام النبي العظيم وهو يستمع.

البول في المسجد

ويقع في هذا المسجد ما لا يتوقعه أحد. يدخل أعرابي لا يعرف حرمة المكان، فيقف في ناحية منه ويبول. تنفجر الأصوات: مَه مَه! ويتقدم الرجال ليزجروه. إن المشهد على ما فيه من فظاظة في ظاهره لا يملك مؤرخ النفس أن يتجاوزه. فهناك الغيرة على حرمة المسجد، وهناك الأعرابي الذي لم يتعلم، وهناك النبي العظيم الذي بيده القرار.

قال النبي ﷺ: «لا تُزرِموه، دعوه». فتركوه حتى بال، ثم دعا بدلوٍ من ماء فصُبّ عليه. وقال: «إنما بُعثتم مُيسِّرين ولم تُبعثوا مُعسِّرين».

— رواه البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما

فانظر كيف حوّل الحادثة من فضيحةٍ إلى درس. لو زجروه لقام خائفًا وربما أوقف بوله في منتصفه فأصابه ضرر، وربما كره المكان والدين. فكانت الحكمة في أن يُترك حتى ينتهي، ثم يُنظّف المكان، ثم يُبيّن له بعد ذلك. وفي هذه الحادثة منهجٌ تربويٌّ كامل: أن تقدِّم تقليل الضرر على تسجيل الموقف، وأن تُقدِّم كسب الإنسان على الانتصار لنفسك.

وهو حاملٌ أمامة

وقد صلّى ﷺ بالناس يومًا وهو يحمل على عاتقه ابنةَ بنته زينب، وهي أمامة. يصلي بالناس والطفلة على كتفه. فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها. هل تتخيل صف المصلين خلفه، وهم يرون إمامهم وعلى عاتقه طفلة صغيرة؟ كم من قلبٍ تغيّر في تلك اللحظة وقال: إن دينًا يُدخل الصغيرة في الصلاة لا يمكن أن يكون دين قسوة!

> كان النبي ﷺ يصلي وهو حاملٌ أُمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها.
>
> — متفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه

وجاء الأقرع بن حابس، وهو من سادات العرب، فوجد النبي ﷺ يُقبّل الحسن بن علي. فتعجّب الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحدًا. وهذه الجملة في فمه ليست فخرًا، بل هي ما كان معروفًا من جفاء بعض أهل الجاهلية، الذين رأوا في العاطفة ضعفًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال قولةً كأنها قانونٌ كوني:

«من لا يَرحم لا يُرحم».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

بين الهيبة والمحبة

لكن لهذا المجلس وجهًا آخر. فهؤلاء الناس الذين يحبونه ويجلس بينهم بلا حجاب كانوا في الوقت نفسه يهابونه. والقرآن يعلّمهم أدب الحضرة:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾

سورة الحجرات : ٢

فمن جمع بين ﴿لِنتَ لَهُمۡ﴾ و﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ فقد جمع بين طرفين قلّما يجتمعان: ألين الناس وأهيبهم. يُرى الأعرابي يخاطبه بصوتٍ مرتفع فلا يغضب، ويُرى الصحابي الجليل يخفض صوته عنده حتى يكاد لا يُسمع. وإنما يجتمع الأمران في رجلٍ واحد إذا كانت ليونته من رحمةٍ لا من ضعف، وهيبته من صدقٍ لا من سلطان. وهو ما شهد به القرآن في وصفه:

فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

سورة آل عمران : ١٥٩

لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٨﴾

سورة التوبة : ١٢٨

وهذان النصان لو وُضعا في ميزان الفلسفة لقالا: الرحمة ليست ضعفًا في القيادة بل شرطها، ومن غابت عنه الرحمة انفضّ الناس من حوله مهما بلغت قوته. وقد رأى الصحابة هذا الميزان بأعينهم: رأوه عزيزًا عليه ما عَنِتوا، حريصًا عليهم، حريصًا على هدايتهم، رحيمًا بهم.

الفصل الخامس عشر

يوم الجمعة ويوم العيد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ

للأسبوع في حياة النبي ﷺ ذروةٌ عالية هي يوم الجمعة، وللسنة ذروتان هما العيدان. وفي هذين اليومين يتحوّل المسجد من بيت صلاةٍ إلى ميدان اجتماع، وتتحول المدينة كلها إلى جماعةٍ واحدة تصغي لصوتٍ واحد. ومن أراد أن يرى النبي ﷺ في ذروة حضوره الاجتماعي فلينظر إليه في هذين اليومين.

خير يوم طلعت عليه الشمس

> «خير يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة: فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها».
>
> — رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

«غُسل يوم الجمعة واجبٌ على كل محتلم».

— متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

ويبدأ الناس يومهم بالاغتسال، وتتهيأ المدينة. أما هو ﷺ فكان يُحدّث أصحابه عن ساعةٍ في هذا اليوم لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ قائمٌ يصلي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، وأشار بيده يقلّلها. ولم يعيّنها لهم، لتبقى الساعة سرًّا بين العبد وربه، يقف كل مصلٍّ في كل لحظةٍ من الجمعة كأنها قد تكون هي.

وفيه ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، وهو قائمٌ يصلي، يسأل الله شيئًا، إلا أعطاه إياه. وأشار بيده يقلّلها.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

إذا خطب

فإذا ارتقى المنبر رأى الناس منه ما لم يروه في الأيام العادية. جابر بن عبد الله يصف ذلك وصف شاهدٍ مأخوذ:

كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، حتى كأنه منذر جيشٍ يقول: صبّحكم ومسّاكم. ويقول: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد».

— رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

أيّ مشهدٍ هذا؟ النبي العظيم هادئ الطبع في البيت، رحيمٌ مع الصغار، يخطب فتحمرّ عيناه ويعلو صوته كأنه ينذر جيشًا يوشك أن يداهمهم صباحًا أو مساءً. ليس في هذا تناقض. فالذي يرى الخطر الحقيقي على أمته لا يتكلم بصوت الهمس، والرحيم الذي يعلم أن في الأمر نارًا وجنةً لا يجد في نفسه مجالًا للتهوين. وهذه هي الغيرة الصادقة، وهي ليست غضبًا على الناس بل خوفًا عليهم.

إذ انفضّوا إليها

وفي يوم من أيام الجمعة جاءت عيرٌ إلى المدينة، قافلة تجارية فيها طعام. وكان النبي ﷺ قائمًا يخطب. فسمع الناس بقدومها فانفضّ الناس من المسجد إليها، حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا. هكذا يرويه جابر:

> بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عِيرٌ تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا.
>
> — متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

ولننظر الآن بأعين الذي كان واقفًا. على المنبر النبي العظيم يرى الناس يتفرقون عنه، واحدًا إثر واحد، إلى طعامٍ هم في أمسّ الحاجة إليه، ويبقى معه اثنا عشر. ماذا يمكن أن يخطر في نفسه؟ لا نعلم، فإن الرواة لم يرووا لنا ما في صدره. لكن القرآن نزل بما يُعلّم الناس بعد ذلك الأدب الذي لا يُنسى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

سورة الجمعة : ٩-١١

فإنها أيام عيد

أما العيد فيوم آخر. كان النبي ﷺ لا يخرج يوم الفطر حتى يأكل تمراتٍ ويأكلهن وترًا. ثم يخرج إلى المصلّى، ويبدأ بالصلاة قبل الخطبة، وكان يرجع من طريقٍ غير الطريق التي ذهب منها، كأنه يريد أن يزور بيوت المدينة كلها بفرحه، وأن يسلّم على وجوه أكثر، وأن ينشر في أكثر من طريق بشرى هذا اليوم.

كان النبي ﷺ يوم العيد يخالف الطريق.

— رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه [81]

وكان يحرص أن يشهد العيدَ أهلُ المدينة جميعًا. قالت أم عطية رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نُخرج في العيدين العواتق وذوات الخدور، فيشهدن الخير ودعوة المسلمين. أي أنه ما أراد أن يُحرم من بهجة العيد أحدٌ، لا شابةٌ ولا صغيرة، ولا من لزمت بيتها حياءً.

> «إن لكل قومٍ عيدًا، وهذا عيدنا».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

الفصل السادس عشر

يوم الاستسقاء

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا

أصاب المدينة جدبٌ طويل. هلكت المواشي وجفّت الأرض، وضاقت النفوس. ويوم الجمعة، والنبي ﷺ قائمٌ يخطب، دخل رجلٌ من باب المسجد، فوقف أمامه واشتكى. وفي هذا اليوم قصةٌ يرويها أنس بن مالك كما رآها بعينيه:

> أن رجلًا دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله ﷺ قائمٌ يخطب، فاستقبل رسول الله ﷺ قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السُّبُل، فادعُ الله يغيثنا. فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا».
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وهنا يزداد المشهد وضوحًا، لأن أنسًا يصف السماء كما كانت في تلك الساعة:

ولا والله ما نرى في السماء من سحابٍ ولا قَزَعة، وما بيننا وبين سَلْعٍ من بيتٍ ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابةٌ مثل التُّرس، فلما توسّطت السماء انتشرت ثم أمطرت. فلا والله ما رأينا الشمس سبتًا.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

سماءٌ صافيةٌ لا سحاب فيها ولا أثر، وليس بينهم وبين جبل سلع بيتٌ ولا دار، فلا شيء يحجب نظرهم عن الأفق. ثم تجيء سحابةٌ صغيرة كالترس، فتكبر وتنتشر وتمطر. وإذا بالمطر يستمر أيامًا حتى لا ترى الشمس سبتًا. وهذا هو الجانب الإعجازي للقصة، لكن الذي يهمّ هذا الكتاب جانبٌ آخر، يظهر في الجمعة التالية.

حوالينا ولا علينا

فقد دخل رجلٌ من الباب نفسه والنبي ﷺ يخطب، فقال له ما قيل من قبل: هلكت الأموال وانقطعت السبل، لكنها هذه المرة من كثرة المطر. فماذا فعل النبي ﷺ؟

فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والجبال والآجام والظِّراب وبطون الأودية ومنابت الشجر».

قال: فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

لم يقل: اللهم أمسكها. ولم يقل: اللهم اقطع المطر. إنما قال: حوالينا ولا علينا. فالمطر نعمة، ولا يريد أن يُحرم منه أحد، لكنه يطلب أن يقع في مواضعه: على الجبال والتلال وبطون الأودية ومنابت الشجر، حيث ينفع، لا على البيوت والطرق حيث يؤذي. وهذه دقّةٌ في الدعاء لا يعرفها إلا من عرف أن الدعاء ليس طلبًا مطلقًا بل أدبٌ مع الله، يسأله فيه العبد ما ينفعه ويدفع عنه ما يضرّه.

وفي هذا اليوم أيضًا يظهر وجهٌ من وجوه النبي ﷺ لا يُنتبه إليه كثيرًا: أنه يُقاطَع وهو يخطب، فلا يغضب. يدخل رجلٌ في وسط الخطبة ويسأل، فيجيبه. بل يجعل من المقاطعة مناسبةً للدعاء. وقد جعل الله في قرآنه أن الاستغفار سببٌ من أسباب الغيث:

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾

سورة نوح : ١٠-١٢

الفصل السابع عشر

أيام رمضان



شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

لرمضان في حياته ﷺ طعمٌ خاص. هو شهرٌ تغيّرت فيه أيامه كلها: في طعامه وليله وكرمه وعبادته. ومن أراد أن يرى النبي ﷺ في صفاء أيامه فلينظر إليه في هذا الشهر.

أجود من الريح المرسَلة

> كان النبي ﷺ أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلةٍ في رمضان فيُدارسه القرآن، فلَرسولُ الله ﷺ أجودُ بالخير من الريح المُرسَلة.
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

أجود من الريح المرسلة. وأي صورةٍ أجمل من هذه؟ الريح لا تمنّ على أحد، ولا تسأل من تصيب، ولا تُبقي شيئًا في يدها. تعمّ الأرض كلها بما تحمل من غيمٍ

ومطر. هكذا كان كرمه ﷺ في رمضان: لا يسأل ولا يحسب ولا يتردد. ولاحظ أن السبب هو لقاء جبريل. فكأن القرآن حين يُدارَس يُذيب القلب فيفيض. فمن أراد الكرم فليُكثر من القرآن.

إذا جاء رمضان

> «إذا جاء رمضانُ فُتِّحَت أبوابُ الجنة، وغُلِّقَت أبوابُ النار، وصُفِّدَت الشياطين».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

قدر خمسين آية

وقد كان لسحوره نظامٌ هادئ، يرويه زيد بن ثابت وكان معه:

> تسحّرنا مع النبي ﷺ ثم قام إلى الصلاة. قلتُ: كم كان بين الأذان والسَّحور؟ قال: قَدْرُ خمسين آية.
>
> — متفق عليه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه

> «تسحّروا، فإن في السَّحور بَرَكة».
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

قدر خمسين آية، أي ما يقرؤه الإنسان في بضع دقائق قراءةً متمهّلة. فلا تكلّف ولا مبالغة. يتسحّر قليلًا ثم يقوم إلى[87] الصلاة. وفي هذا الذي يبدو يسيرًا ما

يصلح قاعدةً في الزمن كله: أن للعبادة وقتًا قصيرًا يكفي، وأن البركة ليست في الإطالة، بل في صدق القصد.

العشر

فإذا جاءت العشر الأواخر تغيّر كل شيء. تقول أمنا عائشة رضي الله عنها:

> كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدّ مِئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ثلاثة أفعال في جملةٍ واحدة. شدّ المئزر: كناية عن الجدّ والاجتهاد. وأحيا الليل: أي أحياه بالعبادة. وأيقظ أهله: لم يترك زوجاته نائمات والليل ينفتح. وهذه اللفتة الثالثة هي أجمل ما في الحديث: أنه لا يريد أن يكون خيرًا وحده، بل يوقظ من في البيت ليشاركوه.

> كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

> «تحرَّوا ليلة القدر في الوِتر من العشر الأواخر من رمضان».
>
> — رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾

سورة القدر : ١-٥

فرحتان

وما صام رمضان إلا ليفرح. ولذلك قال ﷺ:

> «للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربّه فرح بصومه».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

> «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدّم من ذنبه».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

فرحةٌ في الدنيا، وفرحةٌ في الآخرة. وبين الفرحتين شهرٌ كامل يتعلّم فيه الإنسان أن يملك نفسه، وأن يصبر، وأن يسهر، وأن يُعطي. وفي هذا الشهر كان يسير على هذا النظام: سحورٌ يسير، وقرآنٌ يُدارَس، وكرمٌ كالريح، ثم عشرٌ يُحييها، ثم عيدٌ

يفرح به. وكان في كل ذلك ﷺ حاضرَ القلب. فمن أراد أن يتعلّم كيف يعيش رمضان فلينظر في أيامه كلها.

الفصل الثامن عشر

مع الصغار

ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وإذا خرج من المسجد، أو عاد من سفر، أو مرّ بالأزقة بين بيوت الأنصار، فمن أول ما يلقاه الصغار. فهم لا يعرفون أنه نبيٌّ ولا قائد، وإنما يعرفون أنه يعامل الأطفال كأنهم ناس. وهنا يظهر ما لا تُظهره خطبة ولا غزوة.

يسلّم على الصبيان

> أن رسول الله ﷺ مرّ على صبيان فسلّم عليهم. وقال أنس: وكان النبي ﷺ يفعله.
>
> — متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

السلام على الصغير شيء يظنه الكبار صغيرًا، ويراه الصغار عظيمًا. أي صبيٍّ يُسلَّم عليه من رجلٍ كبير يشعر أنه صار إنسانًا. وهذه التحية الصغيرة هي التي تبني الثقة في قلب الطفل قبل أن يبني أبوه أو معلمه أي شيءٍ آخر.

يا أبا عمير

وكان لأنس أخٌ صغير يُكنّى أبا عمير، وكان له طائرٌ صغير يلعب به، وهو النُّغَير. فمات الطائر، فحزن الصبي. وكان رسول الله ﷺ إذا جاءهم يسأله مازحًا:

> «يا أبا عُمير، ما فعل النُّغير؟»
>
> — متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

النبي العظيم تحمل كتفاه أمّةً، وفي ذهنه أمرُ الله والدنيا والآخرة، ثم يتذكر أن في بيتٍ من بيوت الأنصار صبيًّا مات طائره، فيسأله عنه. وهذا السؤال الصغير، المازح، العالم بالحزن الصغير، هو أروع ما في هذه الصورة. وقد استنبط العلماء من هذا الحديث فوائد كثيرة، لكن الفائدة الأولى أن النبي ﷺ لم يرَ حزن الطفل شيئًا تافهًا. هو ينظر إلى الحزن بعين صاحبه، وحزن طائرٍ عند صبيٍّ يعدل حزن الكبار عند الكبار.

أتجوّز في صلاتي

وحتى في الصلاة، وهي أعلى لحظات الجد، لم يغب عنه صوت طفلٍ يبكي:

> «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أُطيلها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وَجْد أمّه من بكائه».
>
> — متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

يريد أن يطيل الصلاة، فيسمع بكاء الصبي في الصفوف، فيعلم ما في قلب أمه من القلق، فيختصر. هنا لا يتعارض الخشوع مع الرحمة، لأن الرحمة عنده من العبادة. ومن ظنّ أن العبادة تقتضي أن تُغلق قلبك على من حولك فقد أخطأ طريقها. وقد بلغ هذا المعنى مبلغه في أنه ﷺ يختصر ما أراد إطالته لأن قلب أمٍّ في الصفوف يخاف على ولدها.

في حِجره

وأما الحسن والحسين فقد كانا في حجره من صغرهما. يروي أسامة بن زيد:

> كان رسول الله ﷺ يأخذني فيُقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمّنا ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما».
>
> — رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما

وكان يقول عن الحسن: «اللهم إني أحبّه فأحبّه، وأحبَّ من يحبّه»، ورُوي أنه خطب يومًا والحسن إلى جانبه، فنظر إليه مرةً وإلى الناس مرةً وقال: «إن ابني هذا سيّد، ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين». ففي عين الأب الذي يداعب طفلًا نظرٌ إلى مستقبل أمة. وليس في الحنان ما يحجب بُعد النظر، ولا في بُعد النظر ما يقتل الحنان.

تمرةٌ لكل بنت

وكان يوصي الناس بالبنات وصيةً لم يعهدها العرب من قبل. جاءت أمَّنا عائشةَ رضي الله عنها امرأةٌ معها ابنتان تسأل،[93] فلم تجد عندها غير تمرةٍ واحدة، فأعطتها

إياها، فشقّتها المرأة بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت. فدخل النبي ﷺ فحدّثته عائشة، فقال:

> «من ابتُلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهنّ، كنّ له سترًا من النار».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وفي رواية مسلم أنه قال في المرأة التي شقّت التمرة: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة، أو أعتقها بها من النار». تمرة واحدة، لكنها شُقّت نصفين حتى لا تُحرم بنتٌ منها ولا تأكل الأم. وهذه هي التي تزن في ميزان الله حين تخفّ جبال: نصف تمرة بين صغيرتين، من قلبٍ مستعدٍّ أن يجوع.

ومن عرف الصغار بهذه العين عرف لماذا كانت أيامه كلها مشدودةً إلى الرحمة. فإن الرحمة التي لا تمرّ على الصغير لا تكتمل. والصغير هو أول امتحانٍ لمن يزعم الرحمة، لأنه لا يملك ما يردّ به المعروف، ولا يعرف المجاملة، وإن لم يجد حنانًا صادقًا فلا يخدع. وقد نجا النبي ﷺ من هذا الامتحان كل يوم.

الفصل التاسع عشر

أعرابيٌّ يجبذ رداءه

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ

كان يمشي في طرق المدينة كما يمشي أي إنسان، وهو أقدر الناس على أن يُنزل بمن يسيء إليه العقوبة. فما الذي يفعله حين يأتيه من يسيء إليه بغير سبب؟ هذا يوم من أيامه ليس فيه حربٌ ولا وحي، لكن فيه امتحان الحلم.

بُردٌ غليظ الحاشية

يروي أنس بن مالك، الذي رافقه عشر سنين، ما شهده بعينيه:

> كنتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجبذه بردائه جبذةً شديدة، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثّرت بها حاشيةُ البُرد من شدّة جبذته. ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء.
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

ثلاث لحظات متتابعة، كل واحدة منها تكفي لتقول من هو. الأولى: الجبذة. أعرابيٌّ لا يعرف الأدب يشدّ رداء النبي العظيم شدةً تترك أثرًا على كتفه، حتى لاحظه أنس ووصفه. والثانية: النداء. لم يقل: يا رسول الله، بل قال: يا محمد، باسمه المجرّد، وكأنه ندٌّ له. ثم طلب مالًا كأنه يطلب حقًّا، لا إحسانًا. والثالثة: الجواب. التفت النبي ﷺ إليه وضحك.

ضحك. ليس ضحك سخريةٍ ولا ضحك تغافل. هو ضحك من يرى أمامه أعرابيًّا جاهلًا، ولا يريد أن يعلّمه بالتوبيخ. وهذا الضحك أبلغ من كل خطبةٍ في الحلم. فلو كان فيه غضبٌ مكتوم لظهر على وجهه. لكنه كان ضحكًا صافيًا، يزيل التوتر ويعلّم الأعرابي أنه ليس في مواجهة خصم. ثم أمر له بعطاء. فصار جزاء الإساءة إحسانًا.

الشديد حقًّا

وقد جعل ﷺ هذا الخلق قاعدةً في تعريف القوة:

«ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنما الشديدُ الذي يملك نفسه عند الغضب».

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

فمن أراد أن يرى معنى هذا الحديث مجسّدًا فلينظر إلى يومٍ جُبذ فيه رداء النبي ﷺ حتى ظهر أثره على كتفه، فأمر لصاحبه بعطاء. وهو الذي قاد الجيوش وقال الله له في كتابه:

خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ

﴿١٩٩﴾

سورة الأعراف : ١٩٩

والشاة المسمومة

وفي يومٍ آخر جاءته امرأةٌ بشاةٍ مسمومة، فأكل منها لقمةً ولفظها، وظهر الأمر. فجيء بها إليه:

أن امرأةً يهودية أتت النبي ﷺ بشاةٍ مسمومة فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا». قال أنس: فما زلتُ أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أي أن أثر السم بقي في فمه الشريف حتى لاحظه أنس، ومع ذلك قال: لا.

وفي هذا ما يجمع القصتين معًا: أن الذي لا يتألّم لا فضل له في العفو، أما الذي يتألّم ثم يعفو فهو الذي يستحق أن يُسمّى حليمًا.

الفصل العشرون

ليلة «اقرأ عليّ»

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا

من أجمل ما في سيرته ﷺ أن الذي كان القرآن ينزل عليه، كان يحب أن يسمعه من غيره. فلم يكتفِ بأن يكون القرآن في صدره، بل طلب أن يسمعه بأصوات من يحبهم. وقد حفظ لنا ثلاثةٌ من الصحابة ثلاثة مشاهد في هذا الباب، في كل منها دمعة أو ثناء.

حتى بلغتُ هذه الآية

يروي عبد الله بن مسعود:

قال لي النبي ﷺ: «اقرأ عليّ». قلتُ: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أحبّ أن أسمعه من غيري». فقرأتُ سورة النساء، حتى بلغتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قال: «حسبُك الآن». فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تذرفان.

— متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

لقد قرأ ابن مسعود سورة النساء ماضيًا في القراءة، حتى بلغ آية الشهادة. وهي الآية التي تقول: إن الله سيأتي بنبيّ كل أمة شهيدًا على قومه، وبمحمدٍ ﷺ شهيدًا على هؤلاء. فبكى. لم يُرِد أن يسمع المزيد. قال: حسبك. لأن في هذه الآية من الهيبة ما لا يحتمل القلب أن يزيد عليه.

والذي يلفت في الأمر أن الدمعة نزلت لا عند آية عذابٍ ولا عند ذكر جهنم، بل عند آية شهادة. كأنه ﷺ رأى نفسه يوم القيامة واقفًا شاهدًا على أمةٍ كاملة، فثقلت عليه المسؤولية. وهذا قدرٌ من التواضع لا يخطر على بال: الذي بُعث رحمةً للعالمين يبكي عند ذكر أنه سيشهد عليهم.

وسمّاني لك؟

وللصحابي أبيّ بن كعب مشهدٌ آخر مع القرآن:

قال النبي ﷺ لأُبيّ بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾». قال: وسمّاني لك؟ قال: «نعم». قال: فبكى.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أي أن الله أمر نبيّه أن يقرأ سورةً على أحد أصحابه. لم يقرأها على الجماعة. اختار أُبيًّا، وذكر اسمه. فسأله أبيّ مندهشًا: وسمّاني لك؟ أي: بذكر اسمي؟ فقال: نعم. فبكى أُبيّ فرحًا ودهشةً وحياءً. وأي حياءٍ يبلغه الإنسان حين يسمع أن اسمه ذُكر في السماء.

مزمارٌ من مزامير آل داود

وكان ﷺ في بعض الليالي يستمع إلى أبي موسى الأشعري وهو يقرأ، فقال له في الصباح:

> «لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود».
>
> — متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

فقال أبو موسى: لو علمتُ أنك تستمع لقراءتي لحبّرتُه لك تحبيرًا، أي لزيّنتُ صوتي أكثر. وهذا رواه مسلم. وفي هذا ما يدلّ على أنه ﷺ كان يصغي لقراءة أصحابه حتى وهم لا يعلمون.

وهكذا نعرف أن بيت القرآن كان مفتوحًا للجميع: يقرأ ﷺ على أصحابه، ويقرأ أصحابه عليه، ويستمع إليهم وهم لا يعلمون. وهذا هو الذي جعل من أمةٍ أُمّيّةٍ أمةً تحمل الكتاب في صدورها. ومن أراد أن يتعلق بالقرآن حقًّا فليبدأ كما بدأوا: أن يقرأ ويستمع ويبكي.

الفصل الحادي والعشرون

جنازتان وقبر

❦

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ

من أراد أن يعرف نظرة النبي ﷺ إلى الإنسان فليقف عند مشهدين في طرق المدينة: مشهد جنازةٍ تمرّ في الطريق، ومشهد قبرٍ جديد في المقبرة. ليس في أيٍّ منهما معركةٌ ولا وحيٌ ولا خطبة. لكن فيهما ما لا يجده القارئ في أعظم الخطب.

أليست نفسًا؟

> مرّت بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به. فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي. قال: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا».
>
> — متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وفي رواية أخرى لسهل بن حنيف وقيس بن سعد، أنه ﷺ مرّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال:

«أليست نفسًا؟»

— رواه البخاري عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد رضي الله عنهما

جملتان قصيرتان فيهما ما لا تحمله مجلدات. لم يسأل: من هذا؟ ولا: على أي دين مات؟ إنما قال: أليست نفسًا؟ فالإنسان عنده أكرم من أن تُسأل عن دينه حين يُمرّ بجثمانه. والقيام للجنازة ليس تعظيمًا للميت من أهل دينٍ دون دين، بل تعظيمًا للموت نفسه، وللإنسان الذي كرّمه الله. وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك في استمرار القيام للجنازة، وذلك بابٌ للفقه، والذي يعنينا هنا ما انطوت عليه الجملة من معنى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

سورة الإسراء : ٧٠

دلّوني على قبرها

والمشهد الثاني أخفى وأرقّ. في المدينة امرأةٌ كانت تقوم بشأنٍ صغير لا يلتفت إليه أحد: كانت تَقُمّ المسجد، أي تكنسه وتنظّفه. ثم غابت. وانتبه النبي ﷺ لغيابها:

أن امرأةً كانت تَقُمُّ المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها، فقالوا: ماتت. قال: «أفلا كنتم آذنتموني؟» قال: فكأنهم صغّروا أمرها. فقال: «دلّوني على قبرها». فدلّوه، فصلّى عليها.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

تأمّل هذا المشهد. نبيٌّ يقود أمةً، وعنده من الشواغل ما يملأ الليل والنهار، ثم يلاحظ أن امرأةً لم يعد أحدٌ يراها في المسجد. لم يكن لها منصبٌ ولا جاه ولا مقام. كانت تكنس. ومع ذلك لم يغب عنه غيابها. فسأل: أين هي؟ فقالوا: ماتت. فقال: ألا أخبرتموني؟ وفي سؤاله عتبٌ لطيف، لا لأنهم قصّروا، بل لأنهم ظنّوا أن أمرها صغير.

والروايات لم تحفظ لنا اسمها. ولعلّ في إبهام اسمها ما يقول لكل من يعمل عملًا صغيرًا في الخفاء: إن النبي ﷺ لا يغفل عنك. فمضى إلى قبرها، فصلّى عليها. وفي رواية مسلم أنه قال:

«إن هذه القبور مملوءةٌ ظلمةً على أهلها، وإن الله ينوّرها لهم بصلاتي عليهم».

— رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

وبين الجنازة التي قام لها والقبر الذي وقف عنده يتّضح ميزانه: لا يُقاس الإنسان عنده بدينه وحده ولا بمنصبه. يُقاس بأنه نفسٌ كرّمها الله، وبأن عمله، وإن صغر، مكتوبٌ عند ربّه.

الفصل الثاني والعشرون

رحمةٌ تسع كل حيّ

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم

ولم تقف رحمته ﷺ عند الإنسان. فقد تعلّم الناس منه أن للحيوان حقًّا، وللشجر حقًّا، وأن الذي يعامل الدابة بقسوة يُسأل عنها كما يُسأل عن الإنسان. وقد جاءت في سنّته أحاديث تضع للحيوان والشجر حقوقًا لم تكن معروفة عند الناس يومئذ.

امرأةٌ في هرّة

> دخلت امرأةٌ النار في هرّةٍ ربطتها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض.
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

هرّةٌ ربطتها امرأة حتى ماتت. هذا كل ما في الأمر. لا قتل ولا عدوان مقصود. حبسٌ وإهمال. ومع ذلك جعله النبي ﷺ سبباً لدخول النار. فكيف بمن يؤذي أكبر من الهرّة؟ وكأنه يقول: إن الأمانة التي تحملها على كائنٍ ضعيفٍ في يدك أعظم مما تظنّ.

في كل كبدٍ رطبة

وفي المقابل ذكر ﷺ امرأةً من بني إسرائيل رأت كلباً يلهث من العطش حول بئر، قد كاد يقتله العطش، فنزعت خفّها وسقته، فغفر الله لها به. فسأله الصحابة:

> يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: «في كل كَبِدٍ رَطْبةٍ أجر».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

في كل كبدٍ رطبة، أي في كل كائنٍ حيّ. جملةٌ صغيرة تفتح باباً واسعاً: أن الرحمة ليست مقصورة على من تحب، ولا على من ينفعك. وأن شربة ماء لكلبٍ عطشان قد تكون هي العمل الذي يغفر الله به لإنسان.

فأحسنوا القِتلة

ولم يمنع الإسلام أن يُذبح الحيوان ويُؤكل، لكنه جعل لذلك أدباً، وهو أدبٌ لم يكن معهوداً عندهم:

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليُحِدَّ أحدكم شَفرته، ولْيُرِح ذبيحته».

— رواه مسلم عن شداد بن أوس رضي الله عنه

أن يُحدّ الشفرة، وأن يُريح الذبيحة. هذا قانونٌ شامل في الإحسان. ولم يكتفِ بالنهي عن القسوة، بل أمر بالإحسان. وفي هذا ما يجعل الرحمة عملًا لا شعورًا، ومسؤوليةً لا عاطفة.

ومرّ به يومًا حمارٌ قد وُسم في وجهه، أي كُوي بالنار علامةً عليه، فتأثر:

مرّ على النبي ﷺ حمارٌ قد وُسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه».

— رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

غرسٌ وزرع

ولم يكن الشجر عنده أقلّ مكانةً:

«ما من مسلمٍ يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمة، إلا كان له به صدقة».

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

ومن هنا يتبيّن أن الرحمة عند النبي ﷺ لم تكن خُلقًا يتجه إلى جهةٍ معيّنة، بل كانت طبعًا يشمل كل ما يمسّه. فمن[107] كان هذا شأنه مع هرّةٍ وكلبٍ وحمارٍ

ونخلة، فكيف يكون شأنه مع أصحابه وأهله وأمته؟ وهذا هو معنى قول ربه له:

> وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾
>
> سورة الأنبياء : ١٠٧

الفصل الثالث والعشرون

في السفر

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ

وإذا خرج النبي ﷺ من المدينة في سفر، تحوّلت أيامه إلى طريق. لا بيتَ ولا مسجد، بل خيمةٌ ورحل ومنزلٌ جديد كل ليلة. وهنا تتبدّل علاقة الإنسان بكل ما حوله: بالماء والطعام والصحبة والتعب. وفي السفر، كما قيل، يُعرف الرجال.

> «السفر قطعةٌ من العذاب، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليُعجّل إلى أهله».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وكان يقول هذا وهو أكثر الناس سفرًا في سبيل الله. لا يُزيّن السفر لأصحابه ولا يُخفي مشقته. وقلّما كان يخرج إلا يوم الخميس، كما قال كعب بن مالك. وكان إذا استوى على بعيره خارجًا كبّر ثلاثًا ثم قال ما رواه ابن عمر:

«سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البِرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم هوّن علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بُعده...»

— رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

سورة الزخرف : ١٣-١٤

فأول ما يصنعه في رحلته أن يذكّر نفسه بأنه إنما يركب ما سُخّر له، لا ما اكتسبه بقوته. والبعير الذي تحته ليس ملكًا له، بل نعمةٌ من الله يسخّرها له. وكل خطوة في الطريق تُبدأ بحمد المنعم، وتُختم بالرجوع إليه.

ذهب المفطرون اليوم بالأجر

وفي سفرٍ من أسفاره كان بعض الصحابة صائمين وبعضهم مفطرين، والحرّ شديد. ولنسمع أنسًا يصف ما جرى:

كنا مع النبي ﷺ في السفر، فمنّا الصائم ومنّا المفطر. فنزلنا منزلًا في يومٍ حارّ، وأكثرنا ظلًّا صاحبُ الكساء، ومنا من يتّقي الشمس بيده. فسقط الصُّوّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقَوا الركاب، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».

— متفق عليه عن أنس رضي الله عنه

أي ميزانٍ هذا الذي يقيس به؟ ليس عنده أن الصائم أعلى درجة من المفطر في كل حال. إنما ينظر إلى من خدم إخوانه حين احتاجوا إلى الخدمة. وفي سفرٍ حارّ، حين يسقط الصائم من التعب، فإن الذي ضرب الخيمة وسقى الدابة قدّم لأصحابه ما لا يقدّمه صومٌ يُثقل على صاحبه. وهو بذلك ينبّه إلى أن العبادة قد تكون في العمل للناس لا في الانقطاع عنهم.

حيثما توجّهت به

وقد رُوي أنه كان في السفر يصلي النافلة على راحلته حيثما توجّهت به، فلا ينزل ولا يتأخر عن مسيره:

كان رسول الله ﷺ يُسبّح على الراحلة قِبَل أي وجهٍ توجّه، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

— متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

أي أنه ما أراد أن يترك قيام الليل لأنه مسافر، ولا أن يوقف القافلة لأجل نافلة. هو يجمع بين السير والصلاة، فتصير الصحراء كلها مصلًّى، والراحلة

سجادة، والجهة التي يتجه إليها طريقٌ إلى الله أيًّا كانت.

آيبون تائبون

وإذا رجع من سفره بدأ بالذكر قبل أن يعود إلى الناس. فكان إذا قفل من غزوٍ أو حجٍّ أو عمرة كبّر على كل شَرَفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم قال:

> «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

وما إن يصل المدينة حتى يدخل المسجد فيصلي ركعتين قبل أن يدخل بيته، كما حدّث كعب بن مالك. فقبل أن يرى أهله يقف بين يدي ربه، كأنه يقول: لقد عدتُ سالمًا، ولله الفضل. وكان ينهى الرجل أن يطرق أهله ليلًا إذا طالت غيبته، حتى لا يفاجئهم على غير استعداد، وكأنه يريد لعودة المسافر أن تكون فرحةً لا مفاجأة.

> إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلًا.
>
> — متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

الفصل الرابع والعشرون

آخر النهار

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا

ينقضي النهار، ويعود إلى المدينة كل ما كان فيها. ويُصلّي الناس المغرب ثم العشاء، وتفتر الأحاديث. وكان ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها، كما رواه أبو برزة. فللنهار عنده انتهاءٌ كما أن له بداية، والليل ليس للسمر الفارغ بل للراحة والتهجّد.

> كان رسول الله ﷺ يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.
>
> — رواه البخاري ومسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه

وإذا دخل البيت فقد طوى يومًا مليئًا: جاهد وعلّم وقضى وصلّى وخدم، وما بقي إلا أن ينام. لكنه لا ينام كما ينام الناس. لقد قالت عائشة:

كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

— رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

يغلق يومه بقراءة القرآن كما فتحه. وكأن اليوم كله قوسٌ بين آيتين: آيات آل عمران في الثلث الأخير من الليل، وسور الإخلاص والمعوذتين حين يغمض عينيه. وفي هذا التناسق ما يجعل العقل يتأمل: لم يكن هذا النبي العظيم يعيش أيامًا متفرقة تتخللها العبادة، بل كان يعيش عبادةً واحدة متصلة تتخللها الأعمال.

وكان يضع يده اليمنى تحت خدّه ثم يقول ما رواه حذيفة:

كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ثم يقول: «اللهم باسمك أموتُ وأحيا»، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

— رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

وهنا تنغلق الدائرة. الذي افتتح يومه بحمد الله على البعث الصغير يُغلقه بالتسليم لله في الموت الصغير. وبين الفتح والإغلاق يوم كامل: قيام وسواك وركعتان وخدمة أهل وسؤالٌ عن الأحلام وصلاة بالناس ورحمةٌ بصغير وقضاءٌ بين خصمين وحفرٌ مع الحافرين وثباتٌ حين فرّ الفارون.

الباب الرابع

الغزوات والأحداث الكبرى



الفصل الخامس والعشرون

في الحرب

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ

إذا قلنا إن النبي العظيم ﷺ كان رحمةً خالصة، فلا يجوز أن نخفي أنه قاد الجيوش وواجه السيوف، ولا أن نُلبسه رحمةً ناقصة لا تعرف الحرب. فالحرب في حياته ﷺ لم تكن غاية ولا هواية. كانت جزءًا من واقعٍ فُرض عليه فرضًا: شعبٌ مُهجّرٌ يُطارد في أرضه الجديدة، وأعداءٌ لم يكفّوا عن التآمر. والنظر المنصف لا يبدأ بالمعارك بل بالقواعد التي سبقتها، فمن قواعده تُعرف روحه.

قبل أن يتحرك الجيش

كان ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيشٍ أو سريّة أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغلُّوا ولا تَغدِروا ولا تُمثِّلوا ولا تقتلوا وليدًا».

— رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه

لا غلول: أي لا تأخذوا من الغنيمة شيئًا قبل قسمتها. لا غدر. لا تمثيل بالجثث. لا قتل للأطفال. وروى ابن عمر أنه وُجدت امرأةٌ مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فأنكر ذلك:

فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

— متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما

هذه القواعد تُقال في عصرٍ كانت فيه الحروب لا تعرف حدًّا. وهي كافية لأن نعرف أن السيف كان عنده محكومًا بميزان، وأن القلب الذي يبدأ يومه بالترتيل لم يتبدّل في ساحة القتال.

بدر: يدان مرفوعتان

وفي بدر، أولى معارك الإسلام الكبرى، كان المسلمون نحو ثلاثمئة وبضعة عشر رجلًا أمام نحو ألف. فلما سوّى الصفوف عاد إلى عريشه، فاستقبل القبلة ومدّ يديه. يروي عمر بن الخطاب:

فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني، اللهم آتِ ما وعدتني، اللهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض». فما زال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

— رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وهنا تكتمل اللوحة كلها: في الأفق جيشان، وفي العريش النبي العظيم يمد يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن كتفيه ولا يشعر، وصاحبٌ يلتزمه من ورائه ويضع الرداء على منكبيه ويهدّئه. أين القائد الذي يتقمص دور الجبار؟ ليس هنا. هنا عبدٌ مضطرٌّ يتضرع. ونزل القرآن يذكّرهم بما حدث:

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾

سورة الأنفال : ٩

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

سورة آل عمران : ١٢٣

أُحد: أشدّ الأيام

وفي أحد انقلب الميزان. أصابت المسلمين هزيمةٌ بعد نصر، وكُسرت رباعية النبي ﷺ وشُجّ وجهه. وروى أنس ما رآه:

> شُجّ النبي ﷺ يوم أحد وكُسرت رباعيّته، فجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كيف يُفلح قومٌ شجّوا نبيّهم وكسروا رباعيّته وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾.
>
> — رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه

جملةٌ تحمل توجّعًا بشريًّا لا يُنكره أحد، وتحمل درسًا ربانيًّا في الحين نفسه: ليس لك من الأمر شيء. هداية القلوب بيد الله، وليس على الداعي إلا البلاغ. وكأن الله يحفظ قلبه من أن يتحول الوجع إلى دعاء عليهم. وسألته أمنا عائشة رضي الله عنها بعد ذلك: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أحد؟ فذكر يوم الطائف، وقد وقفنا عنده في فصلٍ مستقل، وذكر أن ملك الجبال عرض عليه أن يُطبق عليهم الأخشبين. فماذا قال؟

> «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

هذه هي الجملة التي تهدم كل قراءةٍ تجعل الحرب عنده ثأرًا. النبي العظيم عُرض عليه الانتقام الكامل من أعدائه بكلمة واحدة، فرفض. فمن كانت هذه

نفسه لم تتسع لحقدٍ ولو أُعطي أسبابه.

الخندق: حجرٌ على البطن

وحين تحزّبت الأحزاب على المدينة، لجأ المسلمون إلى خندقٍ يحفرونه، وكان الجوع مقيمًا. يروي البراء رضي الله عنه ما رآه:

> رأيتُ رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه.
>
> — رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه

وكان يرتجز مع أصحابه وهم يحفرون. كانوا يقولون: والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدّقنا ولا صلّينا. وكان هو يرفع صوته بآخر الأبيات: أبينا، أبينا. ويقول جابر بن عبد الله إنه رأى بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، أي جوعًا، وإنه قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون ذواقًا. ثم أطعم بشاةٍ صغيرة وصاعٍ من شعير ألفًا أو نحوهم.

وكان في الخندق ما وصفه القرآن وصفًا قلّ أن يُبلغ مثله:

إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾

سورة الأحزاب : ١٠-١١

وكانت الليالي باردة والريح عاتية، والجيوش من فوقهم ومن أسفل منهم. وفي هذه اللحظة بالذات، حين بلغت القلوب الحناجر، رأى الناس أقوى ما في النبي ﷺ: حفرٌ مع الحافرين، وجوعٌ مع الجائعين، وبشارةٌ بالفتح لا تتبدّل. ثم جاء النصر:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

سورة الأحزاب : ٩

خيبر: ليلة لا ينام فيها أحد

وقبيل فتح خيبر قال ﷺ كلمةً ألقت في صدور المعسكر ما ألقت: «لأعطينّ هذه الراية غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال سهل بن سعد: فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها. أي باتوا يخوضون في أمرهم ويتساءلون.

وهذا مشهدٌ تُدركه العين قبل أن يصفه القلم: معسكرٌ كبير في ليلة الحرب، آلافٌ من الرجال مستيقظون لا لأنهم خائفون من الموت، بل لأنهم يتمنون شرفًا لا يعرفون لمن سيكون. كل رجلٍ منهم يتقلب على فراشه وفي نفسه سؤالٌ واحد. وأصبح الناس يغدون على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه، فتفل في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، وأعطاه الراية. وقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال:

> «انفُذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمر النعَم».
>
> — متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه

انظر إلى الأولوية: قائدٌ يرسل رجلًا إلى حصن، ويقول له: على رسلك، لا تعجل. ادعهم أولًا. فإن هداية رجل واحد أعزّ عليه من أنفس مال العرب. وإنه لمن الطريف أن نلاحظ أن أعظم ما عنده في الحرب أن يكسب إنسانًا لا أن يكسر إنسانًا.

ولو وقفنا هنا وقفة التحليل لوجدنا في معارك النبي ﷺ ثلاث قواعد لا تتخلف. الأولى أن الدعاء عنده يسبق السلاح ولا يُغني عنه: فهو يمدّ يديه في العريش بعد أن سوّى الصفوف. والثانية أن الحرب عنده وسيلةٌ محدودة، فلا يُقتل فيها من لا يقاتل، ولا تُترك الدعوة قبلها. والثالثة أن القائد أول من يتحمل الخطر وآخر من يأخذ الراحة، كما شهد له من عاش معه. ومن فهم هذه القواعد فهم لماذا لم تُنتج حروبه ما تنتجه حروب الفاتحين من خرابٍ وحقد، بل أنتجت أممًا دخلت في دين الله أفواجًا.

حنين: ثابتًا على بغلته

وفي حنين، دخل المسلمون المعركة وهم اثنا عشر ألفًا، فأعجبتهم كثرتهم كما ذكر القرآن. ثم انقلب الأمر وفرّ الناس، حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا نفرٌ قليل. والقرآن يقول:

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾

سورة التوبة : ٢٥-٢٦

وفي هذه اللحظة حين تفرّق الجيش عنه، لم يتراجع. كان على بغلته البيضاء، يتقدم نحو العدو وهو يقول:

> «أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب».
>
> — متفق عليه عن البراء رضي الله عنه

وقد كان الأسلم أن ينجو بنفسه، لكنه ثبت، وأعلن نسبه ومقامه ليعلم الجميع أنه هنا لم يهرب. وكتب البراء عن ذلك اليوم أصدق شهادةٍ يمكن أن يقدّمها جنديٌّ عن قائده:

كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به، يعني النبي ﷺ.

— رواه مسلم عن البراء رضي الله عنه

نتقي به. أي أن أشجع الناس كان يقف خلف النبي ﷺ ويحتمي به، لا لأنه يُخاف عليه وحده، بل لأن الأقرب إلى العدو كان هو. أما من يقول إن النبي العظيم ﷺ رحمةٌ وحسب، فقد غفل عن حقيقة أن أعلى الرحمة ما اجتمع في قلب الأشجع. فالجبان رحيمٌ حين لا يستطيع، أما الرحيم الذي يستطيع فهو الذي يُسمّى كريمًا.

الفصل السادس والعشرون

يوم بدر: يوم الفرقان

يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ

في رمضان من السنة الثانية للهجرة خرج النبي ﷺ في ثلاثمئة وبضعة عشر من أصحابه، ليس معهم من العدّة ما يكفي لحربٍ كبيرة، يريدون عير قريش. فإذا بهم أمام جيشٍ يفوقهم ثلاثة أضعاف، قد خرج من مكة يحمي تجارته وكبرياءه. وهنا كانت أول مواجهةٍ كبرى بين الإسلام والجاهلية.

قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض

يروي أنس بن مالك ما جرى لحظة اللقاء:

> فقال رسول الله ﷺ: «لا يُقدِّمنّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونه». فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض».
>
> — رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه

لا يتقدّمنّ أحدٌ حتى أكون أنا دونه، أي أقرب إلى العدو. هذه هي أول وصية للقائد: ليس هو الذي يقف خلف الصفوف وينتظر النتيجة، بل هو أول من يُصاب. وهذا يتّسق مع قول البراء رضي الله عنه: كنا إذا احمرّ البأس اتّقينا به. فمن رأى ذلك بعينه عرف أنه ما كان يطلب من أصحابه شيئًا لا يبذله من نفسه.

وكان بين الصفوف أنصاريٌّ اسمه عُمير بن الحُمام، سمع هذه الكلمة، فقال:

> يا رسول الله، جنةٌ عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بَخٍ بَخٍ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟» قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمراتٍ من قَرَنِه فجعل يأكل منهنّ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلة. فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل.
>
> — رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه

هذه من أعجب الصور في تاريخ الحرب. أنصاريٌّ يأكل تمراتٍ على أبواب المعركة، ثم يقف قليلًا، فيقيس عمره بتمراتٍ لم تُؤكل بعد، فيجدها طويلةً أكثر مما يحتمل، فيرميها ويمضي. ليس هذا استخفافًا بالحياة، بل هو أن الجنة التي وُعد بها قد صارت أقرب إليه من التمر الذي في يده. وإنما قال له النبي ﷺ: «فإنك من أهلها» حين صدق في السبب: ما يحملني إلا رجاء أن أكون منها. فمن صدق في رجائه بُشّر.

ما ترون في هؤلاء الأسارى؟

وانتهت المعركة، وبقي سبعون أسيرًا من قريش، فيهم أقارب للصحابة وفيهم أصحاب أشدّ العداوة. فكيف يعاملهم؟ ليس عنده نصٌّ نازل. فاستشار أصحابه:

> فقال رسول الله ﷺ: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العمّ والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تُمكّنّا فنضرب أعناقهم. فهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت.
>
> — رواه مسلم عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم

اجتمع في الرأيين ما لا يتعارض في الحقيقة: الرحمة التي تريد أن تفتح للهداية بابًا، والحزم الذي يخشى أن يتكرر الشرّ. وقد مال النبي ﷺ إلى الرحمة. لكن الأمر لم ينتهِ هنا. فقد قال عمر:

> فلما كان من الغد جئتُ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان. فقلتُ: يا رسول الله، أخبرني من أي شيءٍ تبكي أنت وصاحبك؟ ... فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.
>
> — رواه مسلم عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾

سورة الأنفال : ٦٧-٦٨

والمشهد هنا عجيب. القائد الذي نزل الوحي يعاتبه في اجتهاده، يبكي مع صاحبه، ولا يردّ الخطأ إلى غيره. ولم يُنقل عنه أنه ألقى تبعته على أحد. بكى كما يبكي من يظن أنه قصّر في حقّ ربه. ومن أراد أن يفهم لماذا اتبعه الناس هذه الاتباع كله، فلينظر إلى هذا المنظر: نبيٌّ يُعاتَب في القرآن، فلا يختبئ من العتاب.

لو كان المُطعم حيًّا

وفي أسارى بدر قولةٌ تدلّ على وفائه، يرويها جُبير بن مُطعم:

> أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: «لو كان المُطعِم بن عَدِيّ حيًّا، ثم كلّمني في هؤلاء النَّتْنى، لتركتُهم له».
>
> — رواه البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه

والمُطعم كان من كبار قريش ولم يسلم، لكنه كان قد أجار النبي ﷺ حين عاد من الطائف مطرودًا فدخل مكة في جواره. فلم ينسَ النبي ﷺ له هذه اليد، كما تذكر كتب السيرة، وقد مات المُطعم قبل بدر. ولو كان حيًّا لأطلق الأسارى كلهم من أجله. وهذا الوفاء لمشركٍ مات قبل المعركة هو أرقّ ما في هذا اليوم الذي سمّاه الله يوم الفرقان.

الفصل السابع والعشرون

يوم أُحد

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

وبعد بدر بسنة جاءت قريش تطلب ثأرها. خرجت بثلاثة آلاف إلى مشارف المدينة، وخرج النبي ﷺ بنحو ألف، ثم رجع ثلثهم في الطريق. وبقي سبعمئة تحت جبل أُحد. وفي هذا اليوم، الذي بدأ نصرًا وانتهى جرحًا، من الدروس ما لا يجده القارئ في يوم نصرٍ خالص.

لا تبرحوا

وضع النبي ﷺ نفرًا من الرماة على جبلٍ يحمي ظهر الجيش، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير. ويروي البراء بن عازب:

وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا».

— رواه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

لا تبرحوا. كلمةٌ واحدة لو بقيت في القلوب لما انقلب شيء. لكن المسلمين انتصروا في أول المعركة حتى هرب المشركون، فرأى بعض الرماة الغنيمة، فقالوا: الغنيمة، أي قوم الغنيمة. وذكّرهم أميرهم بقول النبي ﷺ، فلم يسمعه إلا قلة. فتركوا الجبل. ودخل الفرسان من الخلف، وانقلب النصر هزيمة.

وهنا درسٌ لا ينساه التاريخ: أن النصر ينقلب حين يتبدّل الهدف. كانوا قد نصروا من أجل الله، فلما نظروا إلى الغنيمة تغيّر الميزان. ولهذا نزل القرآن بعد ذلك يقول لهم ما لا يُقال إلا لأحبابٍ:

وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

سورة آل عمران : ١٣٩

نحري دون نحرك

وفي ذلك الاضطراب وقف حول النبي ﷺ نفرٌ قليل. فكان أبو طلحة الأنصاري أقربهم. يروي أنس:

لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بحَجَفة، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد النَّزْع، ... وكان النبي ﷺ يُشرف فينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تُشرف يُصبك سهمٌ من سهام القوم، نَحري دون نحرك.

— متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

نحري دون نحرك. أي إن أصابك سهمٌ فليُصبني أنا قبلك. وكان الناس قد انهزموا عنه، وأبو طلحة يرفع الترس فوق النبي ﷺ ويحميه به. وكان النبي ﷺ يُشرف ينظر إلى القوم، فيرجوه أبو طلحة ألا يُشرف، لأن حياة النبي ﷺ عنده أغلى من حياته.

وهناك سعد بن أبي وقاص، الذي كان يرمي بين يدي النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ كلمةً لا يقولها إلا من يحب:

ما سمعتُ النبي ﷺ يَجمع أبويه لأحدٍ غير سعد، فإني سمعتُه يقول يوم أُحد: «ارمِ فِداك أبي وأمي».

— متفق عليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

ولنتخيل هذا القائد في وسط المعركة، وجهه يُدمى، وعشرات من أصحابه يتساقطون، وهو يجد في قلبه مكانًا لأن يشجّع صاحبه بأغلى كلمة يعرفها: فداك أبي وأمي.

دمٌ لا يتوقف

وأصيب ﷺ في ذلك اليوم إصابةً بالغة، وروى سهل بن سعد كيف عولج:

> جُرِحَ وجهُ رسول الله ﷺ، وكُسرت رَباعِيَتُه، وهُشِمَت البيضةُ على رأسه، فكانت فاطمة عليها السلام تغسل الدم، وعليٌّ يُمسك، فلما رأت فاطمة أن الدم لا يزيد إلا كثرة، أخذت حصيرًا فأحرقته حتى إذا صار رمادًا ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.
>
> — متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه

ابنته فاطمة، وهي شابة، تغسل الدم عن وجه أبيها، وزوجها عليٌّ يسكب الماء. تحاول مرةً بعد مرة، والدم لا يتوقف، فتحرق حصيرًا وتضع رماده على الجرح. هنا الجانب الأسري من يوم أُحد، وهو الجانب الذي تغفل عنه كتب الحروب: أن القائد الجريح كان له أهلٌ يعالجونه بما يملكون من حبٍّ وحيلة.

ريح الجنة دون أحد

وفي ذلك اليوم سقط من الأبطال من لا تُحصى أسماؤهم. منهم أنس بن النضر، عمّ أنس بن مالك، الذي غاب عن بدر وأقسم أن يُري الله ما يصنع إذا شهد قتالًا. فلما كان أُحد:

> فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أُحد.
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وقد وجدوا فيه بعد المعركة بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف أو طعنةً بالرمح أو رميةً بالسهم، حتى لم يعرفه أحدٌ إلا أخته من بَنانه. وهكذا وفّى بما عاهد الله عليه، وقد قال أنس إنهم كانوا يرون أن آيةً في القرآن نزلت فيه وفي أمثاله:

> مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا
>
> ﴿٢٣﴾
>
> سورة الأحزاب : ٢٣

نَمِرة قصيرة

ومنهم مصعب بن عمير، حامل لواء المسلمين، الذي ترك الرفاهية في مكة حين أسلم. يروي خبّاب بن الأرتّ:

> قُتل مصعب بن عمير يوم أُحد، ولم يترك إلا نَمِرة، فكنّا إذا غطّينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطّينا رجليه خرج رأسه. فقال لنا النبي ﷺ: «غطّوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر».
>
> — متفق عليه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه

بردةٌ صغيرة لا تكفي جسدًا. ويقول النبي ﷺ لأصحابه ما يعالج به الموقف: غطّوا الرأس واجعلوا على الرجلين نبتًا من الأرض يستر. وهذه اللفتة الصغيرة

منه ﷺ، التي لا تخطر ببال أحدٍ وهو في وسط المصيبة، تظهر كيف كان يبقى متنبّهًا لأدقّ التفاصيل حين يفقد أحبابه.

ثم من الغد

ولم ينتهِ اليوم عند هذا الحدّ. فبعد أن انصرف المشركون، خشي النبي ﷺ أن يرجعوا. وتحدّثنا أمنا عائشة رضي الله عنها فتقول لابن أختها عروة:

> يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصابه يوم أُحد وانصرف عنه المشركون، خشي أن يرجعوا، فقال: «مَن يذهب في إثرهم؟» فانتدب منهم سبعون رجلًا.
>
> — رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

وفي صباح اليوم التالي، والجراح لم تلتئم والدماء لم تجفّ، خرج سبعون منهم يتعقّبون الجيش الذي هزمهم بالأمس. وهذا هو معنى القوة: أن يخرج في اليوم الذي يلي الألم. وقد خلّد القرآن هذا الموقف:

> ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾
>
> سورة آل عمران : ١٧٢

الفصل الثامن والعشرون

السيف المعلَّق

❦

وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

من أجمل ما رواه جابر بن عبد الله قصةٌ قصيرة، لا معركة فيها ولا خطبة، لكنها تحمل من الثقة ما لا تحمله الجيوش. وقعت في غزوةٍ نحو نجد، وفي ساعة القيلولة.

> غزونا مع رسول الله ﷺ غزوةً قِبَلَ نجد، فأدركتنا القائلةُ في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرةٍ فعلّق بها سيفه.
>
> — متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

تخيّل المنظر: وادٍ حارّ، وأشجارٌ كثيفة، والناس كلٌّ تحت شجرة. وقائد الجيش ﷺ تحت سمرةٍ، قد علّق سيفه بغصنها، ونام. نام كما ينام المسافر المتعب، ولم يذكر الراوي عند رأسه حارسًا. وهذه صورةٌ لا تخطر ببال من يحكم الناس بالخوف. فالحاكم الخائف لا ينام والسيف بعيدٌ عنه.

من يمنعك مني؟

> ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابيّ. فقال: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلتُ: الله، فها هو ذا جالس». ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.
>
> — متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وقف الأعرابي فوق النبي ﷺ والسيف مسلولٌ في يده، وسأله سؤال من يرى أن لا جواب له: من يمنعك مني؟ والجواب عند أيّ إنسانٍ في موقفٍ كهذا واحد: لا أحد. أما هو ﷺ فقال كلمةً واحدة، بلا اضطراب ولا ارتعاش: الله.

ويلفت في الرواية أن النبي ﷺ لم يرويها بغضب. يقول لأصحابه: إن هذا اخترط سيفي. كأنه يخبرهم بحادثةٍ عارضة. ثم قال: فها هو ذا جالس. أي أن الأعرابي، الذي كان يحمل السيف قبل لحظات، جلس بجانبه خالي اليدين. وانتهت القصة بجملةٍ يختصر فيها جابر الموقف كله: ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ.

لقد كان في وسع النبي ﷺ أن يأمر بقتله، وكان في وسع أصحابه أن يفعلوا ذلك دون أن يسألوه. لكنه تركه. وفي هذا ما يجعل القارئ يفهم أن العفو عنده لم يكن ضعفًا. كان عفو من يعلم أن الله يحميه. ومن علم ذلك لم يخف من أحد، ولم يحتج إلى الانتقام ليطمئن. وقد قال الله له:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ
تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

سورة المائدة : ٦٧

الفصل التاسع والعشرون

ليلة الأحزاب

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا

مرّ بنا الخندق في فصل الحرب، وحفر الصحابة، والجوع، والحجر على البطن. لكن لتلك الأيام ليلةٌ بعينها حفظها حذيفة بن اليمان، وكان يحدّث بها الناس وهو شيخ. قال له رجلٌ من أهل الكوفة: لو أدركتُ رسول الله ﷺ لقاتلتُ معه وأبليتُ. فقال حذيفة: أنت كنتَ تفعل ذلك؟ ثم حدّثه عن تلك الليلة.

ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم؟

> لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدة وقُرّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجلٌ يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: «ألا رجلٌ يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟» فسكتنا فلم يجبه منا أحد. ثم قال: «قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم».
>
> — رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

ليلةٌ باردةٌ شديدة الريح. مضى عليهم أيامٌ من الجوع والحصار. والمشركون خارج الخندق بجيوشهم. ويسأل النبي ﷺ من يتطوّع للذهاب إلى معسكر العدو، وهي مهمةٌ قد لا يعود منها صاحبها. سألهم مرتين، وفي كل مرة سكتوا. ولا نلوم أحدًا منهم، فمن كان في مثل حالهم من الجوع والبرد والخوف سكت. ثم دعا حذيفة باسمه. قال حذيفة:

> فلم أجد بدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم.
>
> — رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

أي لم يكن في وسعه أن يرفض وقد سمّاه. وفي اختياره حذيفة بالذات ثقةٌ به. وأبرز ما قاله له في تلك الساعة:

> «اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تُذعرهم عليّ».
>
> — رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

ولا تذعرهم عليّ. أي لا تفعل ما يخيفهم أو يهيّجهم. يرسله إلى معسكر العدو ليأتي بالخبر فقط، ويوصيه ألا يُثير ضجةً تُعرّض المسلمين للخطر. وهي وصيّةٌ جامعةٌ بين الشجاعة والحكمة: اذهب إليهم، لكن لا تُظهر نفسك. ولما كان حذيفة في المعسكر ورأى أبا سفيان قائد المشركين يصطلي بالنار وظهره إليه، أخذ سهمًا ووضعه في كبد القوس. يقول:

> فأردتُ أن أرميه، فذكرتُ قول رسول الله ﷺ: «ولا تُذعرهم عليّ»، ولو رميتُه لأصبتُه.
>
> — رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

لقد كان القائد الأعلى للمشركين على بعد سهمٍ واحد من حذيفة، وفي ظهره، وكان يستطيع أن يقتله. لكنه تذكّر وصيّة النبي ﷺ فأرجع سهمه. والعجيب أن ما منعه عن القتل لم يكن خوفًا، بل أمانةً في تنفيذ كلمةٍ قيلت له قبل ساعة. وهذا هو معنى أن يُطاع القائد: أن تبقى كلمته في القلب حتى في اللحظة التي يغري فيها الموقف بنقضها.

من فضل عباءته

ورجع حذيفة بالخبر. وهنا أجمل ما في القصة، ولو لم يكن فيها غيره لكفى:

> فلما أتيتُه فأخبرتُه خبر القوم، وفرغتُ قَرِرتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءةٍ كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائمًا حتى أصبحتُ.
>
> — رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

رجع حذيفة وقد أنهكه البرد والخوف، فبدأ يرتجف. فماذا فعل القائد ﷺ؟ لم يأمره بشيء. لم يقل له: أحسنت. بل خلع طرفًا من العباءة التي كان يصلّي فيها وألبسه إياه. وكانت الليلة شديدة البرد، والنبي ﷺ نفسه يحتاج إلى دفئها. لكنه فضّل أن يغطّي بها صاحبه. فنام حذيفة حتى الصباح في دفء عباءة النبي ﷺ.

هذا هو الفرق بين قائدٍ يُرسل ويكتفي بالانتظار، وقائدٍ يُرسل ثم يغطّي. وكانت الريح تلك الليلة قد أخذت تقلب على المشركين قدورهم وتطفئ نيرانهم، حتى ارتحلوا. وفي ذلك قال القرآن:

وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾

سورة الأحزاب : ٢٥

الفصل الثلاثون

يوم الحُديبية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا

في السنة السادسة للهجرة رأى النبي ﷺ في منامه أنه يدخل المسجد الحرام، فخرج إلى مكة معتمرًا. ومعه من أصحابه ألفٌ وأربعمئة، ليس معهم سلاحٌ إلا السيوف في أغمادها، ومعهم الهدي. قال جابر:

> كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمئة.
>
> — متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وبلغ قريشًا خبرهم، فخرجوا لصدّهم. وفي الطريق بركت ناقة النبي ﷺ، وهي القصواء، فقال الناس: خلأت القصواء، أي أبت أن تسير ولزمت مكانها. وفي هذه اللحظة تظهر نظرته إلى الأحداث:

«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألونني خُطّةً يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إياها».

— رواه البخاري عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم

فهذا النبي العظيم قد قرّر قبل أن يبدأ التفاوض: أي شيءٍ يطلبه خصومه يعظّمون به حرمات الله سيُعطيهم إياه. لا يقول هذا ضعفًا، فإن ألفًا وأربعمئة رجلٍ حوله ما كانوا ليقبلوا بالضعف. بل يقوله لأنه يرى أن أهم ما في الموقف هو حرمة البيت، وأن الدم الذي يُراق في الحرم أخطر من الشروط التي تُكتب.

عروة بن مسعود

وأرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي، وهو رجلٌ خبير بالملوك، ليفاوض. فقعد يراقب أصحاب النبي ﷺ، ثم رجع إلى قومه وقال ما لم يتوقعوا:

أي قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيتُ ملكًا قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحابُ محمدٍ محمدًا. والله ما تنخّم نُخامةً إلا وقعت في كفّ رجلٍ منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه.

— رواه البخاري عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم

وشهادة العدوّ أصدق من شهادة الصديق. هذا رجلٌ لم يؤمن بعد، رأى الملوك وعرف كيف يحترم الناس سادتهم، ثم قال إنه لم يرَ مثل هذا. والعجيب أنه لم يرَ ذلك في بلاط ولا في قصر، بل في عراءٍ بين أناسٍ خرجوا معتمرين لا يملكون إلا سيوفًا في أغمادها.

اكتب باسمك اللهم

وجاء سهيل بن عمرو يفاوض. فلما أمر النبي ﷺ بكتابة الصلح، قال سهيل: لا أدري ما الرحمن الرحيم، اكتب باسمك اللهم. فوافق. ثم قال ﷺ: اكتب: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسول الله. فقال سهيل: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله. فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذّبتموني». ثم أمر عليًّا أن يمحو، فأبى عليّ أن يمحو:

> فقال له: «امحُه». فقال علي: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه رسول الله ﷺ بيده.
>
> — متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما

أيّ موقفٍ هذا؟ رسولٌ يمحو بيده صفة الرسالة من كتاب الصلح. ولو كان في الأمر شيء من حظّ النفس لما فعل. لكن النفس عنده لا تعني شيئًا حين يكون الأمر مصلحة الدعوة. وهذه هي القوة التي لا يعرفها كثيرٌ من الناس: قوة التنازل عن الشكل لإنقاذ المضمون. فاسم «رسول الله» باقٍ في صدور أصحابه ولا يحتاج إلى ورقة.

وكانت الشروط تبدو مجحفة: أن يرجع المسلمون هذا العام دون أن يدخلوا مكة، وأن يردّوا من جاءهم من قريش مسلمًا، ولا تردّ قريش من خرج إليها منهم. وفي هذه اللحظة بالذات جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من مكة مسلمًا يطلب الخلاص، فقال أبوه سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه أن تردّه. فقال النبي ﷺ لأبي جندل:

> «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا».
>
> — رواه البخاري عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم

ألسنا على الحق؟

وغضب الناس. ومن بين الذين غضبوا عمر بن الخطاب، فجاء إلى رسول الله ﷺ يسأل بحدّته المعروفة:

> ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدوّنا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلِمَ نُعطي الدنيّة في ديننا إذًا؟ قال: «إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري».
>
> — رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ويقول عمر في آخر الرواية إنه عمل بعد ذلك أعمالًا، أي أعمالًا صالحةً تكفّر ما كان من تلك المراجعة. وأروع ما في هذا الموقف أن عمر، وهو من هو في الصدق، كان أول المعترضين، وأن النبي ﷺ لم يجادله جدالًا مرّا، بل أجابه

بجملةٍ هادئة. وإن الفرق بين من يقود برؤيةٍ ومن يقود بانفعالٍ هو أن الأول يقبل أن يبدو أمام الناس مخطئًا، وهو يعلم أين يريد أن يصل.

ثم قوموا فانحروا

وانتهى الصلح، فقال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. فما قام منهم رجل. حتى قالها ثلاث مرات، فلم يقم أحد. فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس. قالت:

> يا نبيَّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنَك وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنَه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا.
>
> — رواه البخاري عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم

وفي هذا المشهد شيئان: قائدٌ لا يرى عيبًا في أن يستشير امرأةً وهو في ساعةٍ عصيبة، وجماعةٌ لا يهزّها الكلام بل الفعل. أم سلمة لم تُجادل ولم تُقنع، بل قالت له: افعل أنت أولًا. وهذا هو سرّ ما يُسمّى القدوة: الناس لا تقتدي بما تسمع، بل بما ترى.

أَوَفتحٌ هو؟

وفي طريق العودة نزلت سورة الفتح. فقرأها النبي ﷺ على عمر. قال عمر: أَوَفتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم». وأي[48] فتحٍ؟ رجعوا من غير أن يدخلوا مكة،

وقبلوا بما ظنّوه ذلًّا. لكن الأحداث بعد ذلك كشفت: انتشرت الدعوة في أمن الهدنة، ودخل في الإسلام عددٌ كبير، ثم نقضت قريش العهد فجاء الفتح الأكبر بعد نحو عامين، وقد صار الجيش الذي كان ألفًا وأربعمئة عشرة آلاف.

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

سورة الفتح : ١-٣

لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

سورة الفتح : ١٨

وهكذا تُعلّمنا الحديبية أن النصر ليس دائمًا ما يبدو أنه نصر، وأن الهزيمة الظاهرة قد تكون فتحًا مبينًا، وأن المعيار الذي يُقاس به الأمر ليس ما نراه اليوم بل ما يريده الله لنا غدًا.

الفصل الحادي والثلاثون

ثُمامة بن أُثال

❦

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا

جاءت سريةٌ من سرايا النبي ﷺ تحمل أسيرًا لا يعرفون من هو. فلما سُئل، تبيّن أنه سيّد أهل اليمامة، ثمامة بن أُثال الحنفي، الذي كان من أشدّ الناس عداوةً للنبي ﷺ. فلنسمع أبا هريرة وهو يروي ما جرى:

ما عندك يا ثمامة؟

> فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنتَ تريد المال فسَل منه ما شئت.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ثلاثة احتمالات، قالها ثمامة بلسان سيّدٍ لا يعرف التذلّل. إن تقتل فقتلك لذي دم، أي لرجلٍ له من يثأر له. وإن تنعم، أي تعفو، فإن عفوك على شاكر

يعرف قدره. وإن أردتَ المال فاطلب ما شئت. ثلاثة أبواب تركها لهذا الذي يملك أمره. ولم يرد عليه النبي ﷺ. تركه في المسجد.

> فتُرك حتى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: ما قلتُ لك. فتركه حتى كان من الغد، فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي ما قلتُ لك. فقال: «أطلقوا ثمامة».
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ثلاثة أيام يُربط فيها الأسير في ساحة المسجد، يرى الناس يصلّون ويسمعهم يقرؤون، ويرى النبي ﷺ يمرّ عليه كل يوم فيسأله السؤال نفسه. ولم يُعذَّب ولم يُهَن، بل رأى وجه عدوّه من قريب. وفي اليوم الثالث، حين لم يغيّر جوابه شيئًا، قال: أطلقوا ثمامة. من غير فدية ولا شرط.

أحبّ الوجوه إليّ

وما صنع ثمامة بعد أن فُكّ قيده؟ ربما ظنّ بعض الناس أنه سيهرب. لكنه:

فانطلق إلى نخلٍ قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليّ. والله ما كان من دينٍ أبغضَ إليّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليّ. والله ما كان من بلدٍ أبغضَ إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد إليّ.

— متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ثلاثة أيام قلبت قلبًا. ولم يكن في الأمر معجزة ولا خطبة. كان فيه أن عدوًّا أُسر فلم يُذكر أنه عُذّب، وسُئل عن حاله ثلاث مرات، ثم أُطلق. وكانت المعاملة أقوى من كل حجة. وأعجب ما في كلام ثمامة ترتيبه: الوجه، ثم الدين، ثم البلد. بدأ من الإنسان ثم انتهى إلى الفكرة. فما أحبّ الدين إلا بعدما أحبّ وجه صاحبه. وهذه سنةٌ من سنن القلوب: أن الأفكار لا تدخل قلبًا مغلقًا، وأن أول ما يفتحه الوجه الذي يُعامل بالرحمة.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ

﴿٦﴾

سورة التوبة : ٦

لا يأتيكم حبةُ حنطة

وكان ثمامة يريد العمرة حين أُسر، فسأل النبي ﷺ عمّا يفعل، فبشّره وأمره أن يعتمر. فلما جاء مكة:

> فلما قدم مكة قال له قائل: صبوتَ؟ قال: لا، ولكني أسلمتُ مع محمدٍ رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبةُ حنطةٍ حتى يأذن فيها النبي ﷺ.
>
> — متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

أي أنه صار هو الذي يملك مفتاح القمح الذي تعيش عليه قريش، وهو الذي أسلم. وتذكر كتب السيرة أن قريشًا كتبت إلى النبي ﷺ تسأله أن يكتب إلى ثمامة ليُطلق لهم الميرة، فكتب إليه. لكن القصة التي نريد أن نقف عندها هي ما جرى قبل ذلك: ثلاثة أيام في المسجد، وسؤالٌ هادئ يتكرر، ثم قلبٌ يتغير.

الفصل الثاني والثلاثون

كتابُ إلى هرقل

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

بعد الحديبية، حين هدأت الحرب مع قريش، بدأ النبي ﷺ يكتب إلى الملوك. كتب إلى كسرى فارس، وإلى النجاشي، وإلى قيصر الروم هرقل، وإلى غيرهم. وفي كتاب هرقل قصةٌ عجيبة لا تُنسى، رواها عبد الله بن عباس عن أبي سفيان بن حرب، وكان يومئذٍ لا يزال على شركه.

الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتّبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسلِمْ تَسلَمْ، يؤتِكَ الله أجرك مرتين، فإن توليتَ فإن عليك إثمَ الأريسيّين. وكتب فيه آية آل عمران:

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

سورة آل عمران : ٦٤

عبارةٌ مقتضبة، كلّ كلمةٍ فيها محسوبة. يبدأ بالبسملة. ثم يُعرّف نفسه بما هو عليه: عبد الله ورسوله. ثم يخاطب الملك بلقبه، عظيم الروم، فلا يُهينه. ثم يدعوه: أسلم تسلم، أي تسلم من عذاب الدنيا والآخرة. ثم يعده بأن يؤتيه الله أجره مرتين. وفي الآية التي كتبها في آخره دعوةٌ إلى كلمة سواء، أي كلمة يشترك فيها الطرفان: ألا نعبد إلا الله.

أيكم أقرب نسبًا؟

وكان هرقل في القدس حين وصله الكتاب، وصادف أن كان أبو سفيان في تجارةٍ بالشام مع قافلةٍ من قريش. فاستدعاهم الملك وسألهم:

أيُّكم أقربُ نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلتُ: أنا أقربُهم نسبًا. فقال: أدنوه مني، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائلٌ هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذّبوه. قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياءُ من أن يأثِروا عليّ كذبًا لكذبتُ عنه.

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان

وهنا مشهدٌ فريد: أكبر عدوٍّ للنبي ﷺ يقف بين يدي ملك الروم ليشهد عليه. وهو يعترف بأنه لو لم يستحِ من أصحابه لكذب. أي أنه كان يتمنى أن يُسيء إلى صاحب هذا الكتاب، لكن الحياء منعه. ولهذا فإن كل جواب يقوله تحت هذا الإكراه يزداد وزنًا، لأنه جوابٌ من خصمٍ لا يريد أن يمدح.

هل كنتم تتّهمونه بالكذب؟

ومن الأسئلة التي سأل الملك أبا سفيان عنها: نسبه، وهل قال قولَه أحدٌ قبله، وهل كان في آبائه ملك، وهل يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم، وهل يزيدون أم ينقصون، وهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطةً لدينه، ثم:

فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلتُ: لا. ... فهل يغدر؟ قلتُ: لا، ونحن منه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها.

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان

فماذا يأمركم؟ قلتُ: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة.

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان

كل جواب منها يقول شيئًا عن النبي ﷺ لم يعرفه خصمه عن نفسه: أن أصحابه لا يرتدّون بعد أن يدخلوا في دينه. وأنه لا يغدر. وأنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. وهذه الأربعة هي ملخص دعوته على لسان من حاربه. لم يقل أبو سفيان: يأمر بالقتال ولا بالغزو ولا بالملك، بل بالصدق والعفاف.

لغسلتُ عن قدميه

ثم تكلّم هرقل، وأعاد على أبي سفيان ما قاله بجوابٍ لكل سؤال. وأعجب ما في كلامه:

وسألتُك هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرتَ أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله.

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان

فإن كان ما تقول فيه حقًّا فسيملك موضعَ قدميّ هاتين. وقد كنتُ أعلم أنه خارج، لم أكن أظنّ أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه.

— رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رَضِيَ الله عنهما عن أبي سفيان

جملةٌ تُحسب من أبلغ ما قيل في فهم النبوة: الذي لم يكذب على الناس لا يكذب على الله. فصدق الإنسان في صغائر حياته هو أول برهانٍ على صدقه في ما يدّعيه كبيرًا. وهذا ما قالته خديجة قبل سنين في حراء، وما قاله أهل مكة على الصفا، وما يقوله ملك الروم اليوم. ثلاثة شهودٍ من أبعد ما يكونون عن بعضهم، اتفقوا على ما رأوه.

وأما أبو سفيان فيقول بعد خروجه: لقد أَمِرَ أمرُ ابن أبي كَبْشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر. فما زلتُ موقنًا أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام. وأسلم بعد سنين، ولعلّ هذه الوقفة بين يدي هرقل كانت أولى الخطوات.

الفصل الثالث والثلاثون

يوم مؤتة

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

في السنة الثامنة للهجرة بعث النبي ﷺ جيشًا نحو الشام، وأمّر عليهم ثلاثة: زيد بن حارثة، فإن أُصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أُصيب فعبد الله بن رواحة. وقد جرى الأمر كما رتّب.

وعيناه تذرفان

والمعركة كانت بعيدة، على أطراف الشام، وأخبارها لا تصل في يومها. لكن النبي ﷺ كان في المدينة يتحدث إلى الناس، ثم قال ما لم يكن أحدٌ ينتظره. يروي أنس بن مالك:

> أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرُهم، فقال: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفرٌ فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب». وعيناه تذرفان.
>
> — رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

يخبر الناس بما جرى في أرضٍ بعيدة قبل أن يصل خبره، وعيناه تذرفان. والجمع بين الأمرين غريب: النبوة التي تعلم الغيب والدمعة التي تنزل بلا حياء. ولم يخجل من الدمع، ولا ظنّ أن النبي لا يبكي. بل بكى على أصحابه كما يبكي كل من فقد أحبابه.

سيفٌ من سيوف الله

ثم قال ما يخفّف الحزن ويفتح باب الأمل:

> «ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم».
>
> — رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وسيفٌ من سيوف الله هو خالد بن الوليد، الذي أسلم قبل ذلك بقليل، والذي حمل الراية بعد أن سقط ثلاثة قادة. فجمع الجيش وعاد به. وقد حدّث خالد عن شدّة تلك المعركة:

> لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانية.
>
> — رواه البخاري عن خالد بن الوليد رضي الله عنه

والنبي ﷺ لم يقل هذا الوصف إلا بعد أن بكى. فكأن الحزن والفخر اجتمعا في لحظةٍ واحدة: حزنٌ على من ذهب، وثقةٌ بمن بقي.

يُعرَف فيه الحزن

وبعد أن وصل الخبر، يروي لنا بيته. تقول أمنا عائشة رضي الله عنها:

> لما جاء قتلُ زيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة، جلس رسول الله ﷺ يُعرَف فيه الحزن، وأنا أنظر من صائر الباب.
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يُعرف فيه الحزن. أي يراه كل من نظر إليه: على وجهه وفي جلسته. لم يخفِه ولم يكتمه. وهذا هو النبي الذي علّم أمته أن الحزن على الميت ليس عيبًا، وأن الدمع رحمة. وفي هذا اليوم لم يقل شيئًا. جلس، وعرف الناس في وجهه ما في قلبه.

جعفر الطيّار

ومن بين الثلاثة جعفر بن أبي طالب، ابن عمّه، الذي كان قد هاجر إلى الحبشة ثم عاد قبل فتح خيبر. وقد روى عبدُ[161] الله بن عمر ما رآه حين وقف على

جثمانه:

> وقفتُ على جعفر يومئذٍ وهو قتيل، فعددتُ به خمسين بين طعنةٍ وضربة، ليس منها شيءٌ في دبره.
>
> — رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

أي أن كل جراحه كانت في صدره ووجهه، لا في ظهره. فقد قاتل مواجهًا حتى النهاية، ولم يُدبر. وهذه شهادة ابن عمر، وهي من أبلغ ما قيل في شجاعة الرجال. وفي هذا اليوم الذي حزن فيه النبي ﷺ حزنًا شديدًا، كان في الحزن عزاءٌ: أن من فُقدوا لم يهربوا.

> وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
>
> سورة آل عمران : ١٦٩

الفصل الرابع والثلاثون

يوم فتح مكة

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

وبعد ثماني سنين من الهجرة جاء اليوم الذي لم يتخيله أحدٌ من سكان مكة ولا من الذين خرجوا منها. جيشٌ بعشرة آلاف يقترب من المدينة التي أُخرج منها صاحبه. ومعه عدد من الذين عذّبتهم قريش وصادرت بيوتهم، والذين هُدّدوا وطُوردوا. فماذا يفعل النبي العظيم في اليوم الذي يمكنه فيه أن يفعل كل شيء؟

من دخل دار أبي سفيان

وكان أبو سفيان بن حرب، زعيم قريش الذي قاد ضده معارك أحد والأحزاب، قد جيء به إلى النبي ﷺ فأسلم. وأعلن النبي ﷺ:

> «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».
>
> — رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

انظر كيف رتّب الأمان: بيت أبي سفيان، خصمه الأول، يصير حرمًا. ومن لا يريد القتال فليرمِ سلاحه. ومن لا يريد الخروج فليغلق بابه. فلم يترك لأحدٍ عذرًا في الخوف، ولا طريقًا للتشفّي. وهو القادر على ما شاء.

ثلاثمئة وستون

ثم دخل المسجد الحرام، وكان حول الكعبة أصنامٌ نُصبت على مدى قرون، يعظّمها العرب ويحجّون إليها. ويقول عبد الله بن مسعود:

> دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاثمئة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها بعودٍ في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا».
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

> وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا
>
> ﴿٨١﴾
>
> سورة الإسراء : ٨١

وهذا هو الجانب الآخر من الصورة: الذي عفا عن أهل مكة هو الذي حطّم الأصنام. فالعفو عن الأشخاص لا يعني التسامح مع الباطل. بل إن أعظم العفو هو الذي يصدر عن النبي العظيم، وهو لا يهادن الباطل. ثم دخل البيت مع

أسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقوا عليهم الباب، فصلّى ركعتين بين العمودين، ثم خرج.

لو أن فاطمة

وفي أيام الفتح نفسها وقع ما يكشف عدله. فقد سرقت امرأةٌ من بني مخزوم، وهم من أعرق بيوت قريش. وأهمّ قريشًا شأنها، فقالوا: من يكلّم فيها رسول الله ﷺ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبّ رسول الله؟ فكلّمه أسامة، فتلوّن وجه رسول الله ﷺ وقال:

> «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟». ثم قام فاختطب فقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وايمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

في اليوم الذي يمكن للمنتصر أن يتساهل مع قومه ليكسب قلوبهم، يقول: لو سرقت ابنتي. وقد ظنّ بعضهم أن النصر يغيّر الميزان، فجاء هذا الموقف يؤكد أن العدل عنده لا يتغير بحسب الظروف. لقد رحم أهل مكة، لكنه لم يتساهل مع القانون. وهذا هو الفارق بين رحمةٍ تبني دولة ورحمةٍ تهدمها.

بعد النصر

وبعد أن نزلت سورة النصر، وهي آخر ما نزل من السور كاملة، تغيّر ذكره في صلاته. قالت عائشة:

> ما صلّى النبي ﷺ صلاةً بعد أن نزلت عليه ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلا يقول فيها: «سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

سورة النصر: ١-٣

وفي هذا الجواب الأخير ما يختصر فلسفة النصر عنده. فإن الفاتح في التاريخ يرفع رأسه حين ينتصر، ويطلب تماثيل وأقواسًا وخطبًا. أما هو فيُنزّل رأسه ويطلب المغفرة. ولعلّ هذا الفارق وحده كافٍ ليُدرك العاقل أن هذا النصر لم يكن له، بل هو لله، وأن النبي العظيم الذي دخل مكة بعد ثماني سنوات من الغربة لم يكن يرى نفسه فاتحًا، بل عبدًا يسبّح ويستغفر.

الفصل الخامس والثلاثون

غنائم حنين: الأنصار

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وبعد أن انجلت غبار حنين، بقي مالٌ كثير: سبايا وإبلٌ وغنم. وانتظر النبي ﷺ وفد هوازن أيامًا ليردّ إليهم ما أخذ، فلما لم يأتوا قسّم الغنائم. وكان فيمن أعطى سادةُ قريش، وعطاؤهم ضخم، يقول رافع بن خديج:

> أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كلَّ إنسانٍ منهم مئةً من الإبل.
>
> — رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه

وكان هؤلاء حديثي عهدٍ بالإسلام. وكان في إعطائهم سياسةٌ دقيقة، وهي تأليف القلوب. وقد رأى صفوان بن أمية أثر ذلك في قلبه، فقال:

> والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغضُ الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبُّ الناس إليّ.
>
> — رواه مسلم عن صفوان بن أمية رضي الله عنه

ولو توقف الأمر هنا لقلنا: سياسةٌ حكيمة. لكن الأمر لم يتوقف.

سيوفنا تقطر من دمائهم

فقد وقع في نفوس بعض الأنصار شيء. هؤلاء الذين آووا النبي ﷺ حين طُرد، وقاتلوا معه في كل غزوة، وقفوا في حنين حين فرّ الناس، يرون الإبل والغنم تُعطى لقريش وهم لا يُعطون شيئًا. قالوا:

> يغفر الله لرسول الله ﷺ، يُعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وبلغ ذلك النبي ﷺ. وكان في وسعه أن يتجاهل أو يعاتب أو يعلن في المسجد ما يريد. لكنه فعل ما لا يفعله إلا من يعرف قدر من أمامه: أرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبّةٍ من أدم، ولم يدعُ معهم أحدًا غيرهم. ثم سألهم:

> «ما حديثٌ بلغني عنكم؟»
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

فقال ذوو الرأي منهم: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناسٌ منا حديثةٌ أسنانهم فقالوا كذا. فلم يغضب النبي ﷺ ولم يلُم. وإنما قال ما يمكن أن يُقرأ كأنه أرقّ خطبةٍ في تاريخ القيادة:

> «إني أُعطي رجالًا حديثي عهدٍ بكفر أتألّفهم. أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالله لَمَا تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به». قالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا.
>
> — متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما

لقد قلب الميزان كله. هم يقيسون بالإبل، وهو يقيس بما لا يُقاس: أن يرجعوا ومعهم رسول الله. كأنه يقول لهم: إن كانت الدنيا قد ذهبت إلى هناك، فإن الذي ذهب إلى رحالكم لا يُقدّر بثمن. وما كان أمام الأنصار إلا أن يبكوا:

> فبكى القوم حتى اخضلّت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا.
>
> — رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

الأنصار شعارٌ والناس دثار

ثم زاد فجعل بينهم وبينه ما لا يبلغه مدح:

«لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعبًا لسلكتُ وادي الأنصار وشِعبهم. الأنصار شِعارٌ والناس دِثار. إنكم ستلقَون بعدي أَثَرةً، فاصبروا حتى تلقَوني على الحوض».

— متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما

والشِّعار هو الثوب الذي يلي الجسد، والدِّثار هو ما يعلوه. أي أن الأنصار أقرب الناس إليه كما يكون الثوب الملاصق للجسم. وهذا ما يقوله لهم بعد أن يُنهي شكواهم. ومن الغريب أن الرجال الذين دخلوا القبّة وفي صدورهم عتب خرجوا منها وفي صدورهم محبة أكبر. والسرّ هنا أنه لم يعاملهم كمتّهمين بل كشركاء. لم يدافع عن نفسه، بل شرح لهم قيمتهم. ثم دعا لهم: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار».

وقد جاء القرآن في وصفهم قبل ذلك بآية تخلّد مكانتهم:

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

سورة الحشر : ٩

ولعلّ من أجمل ما في هذا الفصل أن الأنصار حين سمعوا النبي ﷺ لم يطلبوا الإبل، بل طلبوه. وأن النبي ﷺ حين رأى فيهم هذا، ضمّهم إليه بمحبّةٍ تفوق كل غنيمة. وهكذا يتبيّن لنا أن القيادة ليست قسمة الأموال بالعدل فقط، بل قسمة القلوب بالحب، وأن الذي يحتاج إلى مال ليبقى متبوعًا لم يبلغ بعد مرتبة القائد.

الفصل السادس والثلاثون

الخمسون ليلة

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ

كان الصيف قد بلغ ذروته في المدينة، والحرّ يضرب الحرّة ضرباً، والنخيل مثقلٌ بثمره الذي طاب، والظلال تدعو أصحاب البيوت إلى الجلوس. وفي هذا الجوّ بالذات أعلن رسول الله ﷺ الخروج إلى تبوك، وكان لا يريد غزوةً إلا ورّى بغيرها، فبيّن للناس هذه المرة وجهتهم لبعد السفر وشدة الزمان وكثرة العدو. وفي أزقة المدينة ترى الرجال يشدّون الرحال، والنساء يجهّزن الزاد، وصدقات الأغنياء تُساق إلى المسجد، والفقراء الذين لا يجدون ما يحملهم يعودون وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا.

وليس كل يومٍ في المسجد يومَ رحمةٍ ظاهرة. ففي المدينة رجلٌ اسمه كعب بن مالك، شاعرٌ من الأنصار، شهد العقبة، وما تخلف عن غزوةٍ مع رسول الله ﷺ إلا في بدر ولم يكن عتابٌ على من تخلّف عنها. لكنه تخلّف في غزوة تبوك، في صيفٍ حارٍّ وسفرٍ بعيدٍ وثمارٍ قد طابت. لم يكن له عذر. كان صحيحًا

قويًّا غنيًّا، وكان كلما همّ بالخروج قال: أنا قادر على اللحاق، حتى فات الأمر وذهب الجيش.

ثم عاد رسول الله ﷺ من تبوك، وجاء المتخلفون يعتذرون ويحلفون، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ووكل سرائرهم إلى الله. وجاء كعب فسلّم، فتبسّم تبسّم المُغضَب. وهنا يبدأ أعجب ما في الرواية: لقد كان كعب يملك الحجج. قال لنفسه: سأخرج من سخطه بعذر، وقد أُعطيت جدلًا. لكنه لمّا جلس بين يدي النبي ﷺ تبدّد كل ذلك، وقال الحقيقة عارية: والله ما كان لي عذر، ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.

> أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.
>
> — رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

المدينة تصمت

وصدر الأمر: لا يكلّم أحدٌ هؤلاء الثلاثة. ومرّت الأيام. وهنا يقف المحلل أمام ظاهرةٍ لا نظير لها في التاريخ: عقوبةٌ بلا قيد. لا قيد على الأجساد ولا سجن ولا تعذيب. الطرق مفتوحة والسوق مفتوح والمسجد مفتوح، لكن الإنسان صار في وسط الناس غريبًا. وعبّر عن ذلك القرآن بعبارةٍ لا يعلو عليها وصف:

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

سورة التوبة : ١١٨

يروي كعب: فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني.

اقرأ هذه الجملة الأخيرة مرتين. إن رجلًا يقف في الصلاة بعيدًا ويسرق النظرة إلى وجه النبي ﷺ، كما يسرق الطفل نظرةً إلى وجه أبيه الغاضب. والنبي ﷺ يُعرض عنه إذا التفت. وليس هذا إعراض قسوة، فهو حدٌّ وتأديبٌ بأمر الله إلى أن يحكم الله، وكلما ضاقت الدائرة على كعب قرُب الفرج، فإن من لم يُبالِ بالإنسان لم يُعاقبه بهذا الحرص كله على إصلاحه.

ثم جاء اختبارٌ آخر. تسلّم كعبٌ رسالةً من ملك غسّان، يقول فيها: بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. تخيّل رجلًا منبوذًا في مجتمعه، ثم يُعرض عليه المأوى والمال والمكانة. ماذا قال؟ قال: وهذا أيضًا من البلاء. ثم تيمّم بالرسالة التنّور فسجرها به. أحرق الإغراء

وهو أشد ما يكون حاجةً إليه. وهذا الذي يعرفه من يفهم النفس: إن أخطر لحظات الانهيار ليست حين يُشتدّ العذاب، بل حين يُفتح باب الخروج الخاطئ.

وبعد أربعين ليلة جاءه رسول النبي ﷺ يأمره أن يعتزل امرأته. قال: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها. فقال لامرأته: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر. وتمت خمسون ليلة.

صوتٌ من الجبل

وصلّى كعب الفجر في الليلة الخمسين على ظهر بيتٍ من بيوته، جالسًا على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت. فسمع صوتًا من فوق جبل سلع: يا كعب بن مالك، أبشر!

خرّ ساجدًا، وعرف أن الفرج قد جاء. وقد كان رسول الله ﷺ أعلن توبة الله على الثلاثة بعد صلاة الفجر. فانطلق الناس يبشّرونه، وركض رجلٌ على فرس، وصعد آخر على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس. ونزع كعب ثوبيه فكساهما للذي بشّره، ولبس ثوبين استعارهما. ثم توجّه إلى المسجد يتلقاه الناس فوجًا فوجًا يهنئونه بتوبة الله.

فلما دخل المسجد، قام إليه طلحة بن عبيد الله يهرول، فصافحه وهنّأه. يقول كعب: والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة. أيّ سنةٍ كانت قد مرّت على أن يجلس الإنسان بين الناس خمسين ليلة فلا يصافحه أحد، ثم تكفيه في النهاية يدٌ واحدة؟ ثم وصل إلى رسول الله ﷺ:

فلما سلّمتُ على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أمك». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

— رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

وهذا مشهدٌ أخير يجمع الفصل كله: في الفجر بين يدي الله، وفي الصباح بين أصحابه، وفي لحظة الفرح وجهٌ يُضيء كقطعة قمر. لقد كان إذا غضب جفا جفاءً مؤدِّبًا لا يُخرج عن الحق، وإذا فرح فرحًا تعلو به وجوه الناس، وفي الحالين لم يكن يتحرك إلا بما يريد الله. وأسرع كعب في أن يُعلن أن توبته تقتضي أن يتخلى عن ماله كله صدقة، فقال ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك». وهكذا حتى في لحظة التوبة الكاملة كان النبي ﷺ يُوازن بين الغلو والتقصير.

وقال كعب بعد ذلك إنّ الله إنما أنجاه بالصدق، وإن من توبته ألا يحدّث إلا صدقًا ما بقي. وما بقي يكفي، فلا كان الذي تخلّف عن الجيش أصدق من الذين خرجوا في وجه الريح، ولا أنفع منه في تعليم الناس بعد ذلك أنّ الكذب قد يبرئ ساعةً ويُشقي عمرًا، وأنّ الصدق قد يُوجع يومًا ثم ينقذ صاحبه إلى الأبد.

الفصل السابع والثلاثون

شهرٌ في الغرفة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا

قد يظنّ من يقرأ هذه الأيام أن بيت النبي ﷺ كان لا تعتريه عاصفة. لكنه بيتٌ فيه بشر، وفيه نساءٌ لهنّ حاجات وغيرة وطلب، فكان فيه ما في كل بيت. وفي سنةٍ من السنين وقع ما جعله يعتزل نساءه شهرًا كاملًا. وقد رواه جابر وعمر رضي الله عنهما بما يكشف الحقيقة من غير تجميل.

واجمًا ساكتًا

قال جابر: جاء أبو بكر يستأذن على النبي ﷺ فوجد الناس جلوسًا ببابه، لم يُؤذَن لأحدٍ منهم. ثم أُذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فأُذن له:

> فوجد النبي ﷺ جالسًا حوله نساؤه، واجمًا ساكتًا.
>
> — رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

واجمًا ساكتًا. هذه هي الصورة. لا غضبٌ مدوٍّ ولا شكوى، بل النبي العظيم في وسط نسائه صامتٌ لا يتكلم.

وهنا بيت القصيد. لم يكن الخلاف على شيء غير ما يسأله كل أهل بيت: النفقة. وكان البيت بيتًا شحيح المورد، كما رأينا. فطالبن بما يعجز عنه، وتألّم، فاعتزل. أما أبو بكر وعمر فقاما إلى ابنتيهما عائشة وحفصة، فقالا: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئًا أبدًا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرًا.

على حصير

وتعالوا نسمع عمر يصف ما رآه حين دخل على النبي ﷺ في غرفته في تلك الأيام، وقد ظنّ الناس أنه طلّق نساءه:

> فدخلتُ عليه، فإذا هو مضطجعٌ على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمال بجنبه، متكئًا على وسادةٍ من أدمٍ حشوها ليف. وإذا أَفِيقٌ مُعلَّق، وقَبضةٌ من شعيرٍ نحو الصاع، فما رأيتُ في البيت شيئًا يردّ البصر غير أُهُبٍ ثلاثة. فابتدرتْ عيناي.
>
> — متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته. فقال:

«يا ابن الخطاب، أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

والنبي العظيم ﷺ الذي يضطجع على حصير قد أثّر في جنبه، وبجانبه صاعٌ من شعير، يرى أن هذا ما اختاره، وأنه اختار الآخرة. ثم يقول لعمر: أما ترضى؟ كأنه يسأل: هل يوجد في الدنيا ما يعادل أن تكون الآخرة لك؟

وسأله عمر: أطلّقتَ نساءك؟ قال: «لا». فقال عمر: الله أكبر.

تسعٌ وعشرون ليلة

وبعد تسعٍ وعشرين ليلة نزلت آية التخيير. وكان أول ما فعل ﷺ أنه جاء إلى عائشة. تقول:

فلما مضت تسعٌ وعشرون ليلة دخل عليّ رسول الله ﷺ، بدأ بي، فقال: «يا عائشة، إني ذاكرٌ لك أمرًا، فلا عليكِ أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويكِ». ثم قرأ عليّ الآية. فقلت: أفي هذا أستأمر أبويّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

— متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾

سورة الأحزاب : ٢٨-٢٩

وتأمل قوله: «فلا عليكِ أن لا تعجلي». هو بالغ في أن يترك لها المجال. لا يريد أن تجيب انفعالًا ولا خوفًا، ولا أن يضغط عليها بما يملكه من مقام. يريد أن تختار حرةً، وإن كان الخيار بينه وبين الدنيا. وجاءت إجابة عائشة كما جاءت: أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم قالت: فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلتُ.

وهكذا انتهى الشهر بما لا تنتهي به البيوت عادةً: لا بانتصار طرف ولا بتنازلٍ منكسر، بل باختيارٍ حرّ. ولهذا لا يمكن لقارئ هذه الأيام أن يقول إن بيت النبي ﷺ كان بيتًا قاسيًا أو مخيفًا. كان بيتًا يملك الجميع فيه حرية أن يختاروا، وأن يتحمّلوا نتيجة اختيارهم، وأن يعود البيت بعد ذلك إلى ما كان عليه.

الباب الخامس

حجة الوداع والأيام الأخيرة



الفصل الثامن والثلاثون

يوم عرفة

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

ثم جاء العام العاشر، وخرج رسول الله ﷺ إلى الحج ومعه من المسلمين عددٌ لم تعرف الجزيرة مثله. وقال لهم في حجته ما رواه جابر:

> «لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجتي هذه».
>
> — رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

وقد أحسّ في قلبه أن الأمر يقترب. وكان يعلّم الناس، ويعرف أنه لا يتكلم وبعده الوقت. ثم وصل إلى عرفة، وقد ضُربت له قبةٌ بنَمِرة، فنزل بها حتى زالت الشمس. ثم أمر بناقته القصواء فرُحلت، فأتى بطن الوادي، وكانت الجموع حوله لا تُحصى، فخطب خطبةً هي أشهر خطبة في تاريخ الإسلام.

إن دماءكم وأموالكم

> «إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دمٍ أضعُ من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضعُ ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوعٌ كلُّه».
>
> — رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

وقد يمرّ القارئ سريعًا على هذه الجمل، ولا ينتبه إلى ترتيبها العجيب. فإن أول دمٍ أسقطه من دماء الجاهلية هو دم قريبٍ له، ابن ربيعة بن الحارث، من بني هاشم. وأول ربًا أبطله هو ربا عمّه العباس. بدأ بنفسه وأهله قبل أن يطلب من غيرهم. وهذه القاعدة التي يفتقر إليها كثيرٌ من المصلحين: أن تبدأ الإصلاح من بيتك.

اتقوا الله في النساء

> «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».
>
> — رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

وفي خطبته يوم النحر بمنى، كما في رواية أبي بكرة عند البخاري ومسلم، سأل الناس: أيّ يومٍ هذا؟ أيّ شهرٍ هذا؟ أيّ بلدٍ هذا؟ وهم يجيبون، وكل مرة يسكت حتى ظنوا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ليبلّغ الشاهدُ الغائب». فجمع بين الدم والمال والعِرض، وربط ذلك بحرمة الزمان والمكان، ليعلم الناس أن حرمة الإنسان من جنس حرمة الكعبة.

ما تركتُ فيكم

> «وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله. وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكُتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»، ثلاث مرات.
>
> — رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه

ولنتخيل المشهد كما يراه كل من حضر: وادٍ تمتلئ ضفتاه بالناس، وفي الوسط النبي العظيم على ناقة، يرفع إصبعه إلى السماء ثم ينزلها إلى الجموع. السماء والأرض في إشارةٍ واحدة. ويسأل الله أن يشهد على أن ما بلّغه قد وصل. ثم يوصيهم بالكتاب. لا تاجًا ولا عرشًا ولا خلافةً موروثة، بل كتابًا. وقد تشهد الأيام بأنه كان على حق، إذ لم يبق ما تركه من الدنيا إلا القرآن.

اليوم أكملت لكم دينكم

وفي ذلك اليوم نزلت آيةٌ يرويها عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال له رجلٌ من اليهود: يا أمير المؤمنين، آيةٌ في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أيّ آية؟ قال:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

سورة المائدة : ٣

قال عمر: إني لأعلم أيَّ يومٍ نزلت، وأيَّ مكانٍ نزلت: نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة، ونحن واقفون مع رسول الله ﷺ بعرفة.

— متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [185]

وحين يُعلن الله كمال الدين فمعنى ذلك أن الرسالة بلغت تمامها، وأن الأمانة وُضعت في أيدي من سيحملها.

أكثر من أن يعتق

> ما من يومٍ أكثر من أن يُعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة.
>
> — رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

وهكذا اجتمع في يومٍ واحد كمال الدين وعتق الرقاب، ووقف فيه آخر الأنبياء بين الجموع يقول: اللهم اشهد.

الفصل التاسع والثلاثون

يوم النحر بمنى

لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ

بعد عرفة، وبعد المبيت بمزدلفة، جاء الصباح الذي سُمّي يوم النحر. هو أعظم أيام الحج وأحفلها بالأعمال: رمي جمرة العقبة، ثم الذبح، ثم الحلق، ثم الطواف. وكان الناس يتبعون النبي ﷺ في كل حركة، ويسألونه عن كل خطوة. وقد روى جابر في وصف هذا اليوم ما جعل منه درسًا لا يُنسى.

بيده ثم أعطى عليًّا

فرمى الجمرة بسبع حصيات، يكبّر مع كل حصاة. ثم انصرف إلى المنحر:

> ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بَدَنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غَبَر، وأشركه في هَدْيه.
>
> — رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

نحر بيده، ثم أشرك معه علي بن أبي طالب في ما بقي من الهدي. وكان في مكانٍ يضمّ آلاف الناس، ولم يكتفِ بالأمر بل باشر بنفسه. وقد أوصى عليًّا بعد ذلك بما يدلّ على روح هذه العبادة:

> أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بُدنه، وأمرني أن أقسم بُدنه كلها: لحومها وجلودها وجِلالها، في المساكين، ولا أُعطي في جِزارتها منها شيئًا.
>
> — متفق عليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بُدنه كلها، أي مئةٌ منها كما جاء في رواية جابر، لحومها وجلودها وجلالها، تُقسم في الفقراء. ولا يعطي الجزّار من أجره منها شيئًا، بل يعطيه من مالٍ آخر. وقد أخذ من كل بدنة بضعةً طُبخت فأكل منها وشرب من مرقها، وكل ما بقي لغيره. ومن هنا نفهم ما قاله القرآن في هذه الشعيرة:

> لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾
>
> سورة الحج : ٣٧

افعل ولا حرج

ثم جاء الناس يسألون، وهم كثير، وكانوا حديثي عهدٍ بالمناسك. وكان من الأعمال ترتيبٌ معروف: الرمي ثم الذبح ثم الحلق. فمن أخطأ الترتيب سأل. يروي عبد الله بن عمرو:

> وقف رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجلٌ فقال: لم أشعر، فحلقتُ قبل أن أذبح؟ فقال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر فقال: لم أشعر، فنحرتُ قبل أن أرمي؟ قال: «ارمِ ولا حرج». فما سُئل يومئذٍ عن شيءٍ قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج».
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما

افعل ولا حرج. جملةٌ تتكرر مرةً بعد مرة، من أول النهار إلى آخره. يأتيه الرجل قلقًا وقد أخطأ في الترتيب فيقول: لا حرج. ثم يأتيه آخر بسؤالٍ آخر والجواب هو نفسه. لم يُتعب الناس بالفتاوى الدقيقة. جعل الدين يسرًا لمن جاء من بعيد وهو لا يعرف. وهذا هو الوجه الذي يتبيّن لمن يريد أن يفهم لماذا أحبّه الناس: أنه كان يُخفّف عنهم حين يخافون، ولا يشدّد عليهم حين يخطئون.

وأعطاه الناس

وقد وصف أنس بن مالك ما جرى بعد الذبح:

أن رسول الله ﷺ أتى منى فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلّاق: «خذ». وأشار إلى جانبه الأيمن ثم الأيسر، ثم جعل يُعطيه الناس.

— رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وجعل يعطي شعره للناس، وهو مشهدٌ يكشف مقدار ما كان في قلوبهم من الحب.

«اللهم ارحم المحلّقين». قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: «اللهم ارحم المحلّقين». قالوا: والمقصّرين يا رسول الله؟ قال: «والمقصّرين».

— متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

لا ترجعوا بعدي كفّارًا

وفي ذلك اليوم نفسه خطب الناس خطبةً كبيرة، رواها أبو بكرة، وفيها ما لا يتّسع المقام لذكره كله. ومن أجمل ما فيها قوله:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنةُ اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حُرُم».

— متفق عليه عن أبي بكرة رضي الله عنه

أي أن الزمان رجع كما كان: لا نسيء ولا نتلاعب بالشهور الحرم كما كان العرب يفعلون. ثم ذكّرهم بحرمة الدماء والأموال والأعراض، وختم بأمرين:

«ألا هل بلّغت؟» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد، فليُبلّغ الشاهدُ الغائب، فرُبَّ مبلَّغٍ أَوعى من سامع. فلا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقابَ بعض».

— متفق عليه عن أبي بكرة رضي الله عنه

فليبلّغ الشاهد الغائب. وكأنه يقول لأمةٍ كلها: أنتم أمناء على ما سمعتم، فلا تجعلوا العلم ملكًا لكم. وربّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع: فالذي يسمع منكم قد يكون أفهم لما سمع منكم. وهذه من حكمة التعليم: أن يؤمن المعلّم بأن من يأتي بعده قد يكون أبصر منه.

أما الجملة الأخيرة فهي كأنها تقرأ المستقبل وتخاف منه: لا ترجعوا بعدي كفّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. أي لا ترجعوا إلى ما كنتم عليه، وقد جمعتكم الله بعد تفرّق وألّف بين قلوبكم. فإن أعظم ما يخافه عليهم بعده ليس عدوّا من خارج، بل قتالٌ يدور بينهم. وقد بلغ هذا الخوف ذروته في يوم هو يوم العيد، وقد اجتمعت فيه الأمة على صعيد واحد، كأنه يريد أن يُلصق هذه الوصية بقلوبها في أصفى ساعة من ساعات اجتماعها.

الفصل الأربعون

آخر الأيام

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

وللأيام كلها نهاية، وقد كان يعلم ذلك. فإذا اقترب أجله اشتدّ عليه المرض. وقد رُوي عن ابن مسعود أنه دخل عليه وهو يُوعَك، أي تأخذه الحمى بشدّة، فمسّه بيده وقال: يا رسول الله، إنك لتوعَك وعكًا شديدًا. قال:

> «أجل، إني أوعكُ كما يوعكُ رجلان منكم». قلت: ذلك أنّ لك أجرين؟ قال: «أجل».
>
> — متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيتُ الوجع على أحدٍ أشدّ منه على رسول الله ﷺ. فهذا الذي بلغ به الوجع ما بلغ، ومع ذلك لم يمنعه الوجع من أن يسأل عن الصلاة وعن الناس.

في بيت عائشة

وقالت عائشة: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتدّ وجعه استأذن أزواجه أن يُمرَّض في بيتي فأذنّ له. فخرج بين رجلين تخطّ رجلاه في الأرض. ثم أمر أن يصلي أبو بكر بالناس، فقال:

> «مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وراجعته عائشة في أمر ذلك: أبو بكر رجلٌ رقيق، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء. وكرّر عليها الطلب. فصلّى أبو بكر بالناس أيام مرضه.

نظرةٌ من خلف الستر

ثم جاء صباح الاثنين. وأنس بن مالك، الذي خدمه عشر سنين، يروي ما رآه في ذلك الصباح بعينيه، وكان بين الصفوف:

> بينما المسلمون في صلاة الفجر يوم الاثنين، وأبو بكر يصلي بهم، لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسّم يضحك. فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنّ أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة. وهمّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ حين رأوه. فأشار إليهم بيده: «أتمّوا صلاتكم». ثم دخل الحجرة وأرخى الستر.
>
> — متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

وقد توفي ﷺ من يومه ذلك. تأمّل هذه اللحظة التي حفظها التاريخ: النبي العظيم يجد في نفسه ما يجد من الوجع، ينهض إلى ستر الحجرة ويكشفه ليتأكد أن الأمة التي علّمها ما زالت قائمةً في الصلاة. فإذا رأى الصفوف متراصّةً خلف أبي بكر، ورأى وجوه الناس موجّهةً إلى القبلة، تبسّم، كأنه يقول: لقد أديتُ ما عليّ.

وقد وصفت عائشة رضي الله عنها آخر ما سمعته من كلامه، وهو مستند إلى صدرها: كان يقول:

> «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى».
>
> — متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

وهكذا انتهى آخر أيامه كما بدأ كل أيامه: دعاءً إلى الله، وصلاةً بين الناس، وبشرى على الوجه. لم تكن النهاية غريبةً عن البداية، ولا اليوم الأخير مختلفًا عن سائر الأيام إلا في أنه آخرها. وقد قال الله له في كتابه:

> إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾
>
> سورة الزمر : ٣٠

ولعل أعظم ما يتركه فينا هذا المشهد الأخير ما قاله الله للأمة كلها: إن الأشخاص يرحلون، ويبقى ما جاؤوا به. وقد ترك فينا كتابًا يُتلى من الفجر إلى العشاء، وسيرةً تعيش أيامها في كل قلبٍ يريد أن يتبعها.

خاتمة: ما بين الفجرين

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ

إذا أردنا أن نجمع ما رأيناه في هذه الأيام في جملةٍ واحدة قلنا: هذا النبي العظيم لم يكن فيه شقٌّ بين الداخل والخارج. ما كان عليه في خلوته هو ما كان عليه في مسجده، وما كان في مسجده هو ما كان في ميدان قتاله. فإذا قلت: أين الحنان؟ وجدته في الحرب يبقى مع الناس. وإذا قلت: أين الصلابة؟ وجدتها في البيت تحت ستار اللين. وليس بين الحالتين تناقض، بل هي وجهان لقلبٍ واحد لم يُقسَم.

وقد وضع القرآن لنا قاعدة للنظر في هذه الحياة كلها، لا لنقرأها كما تُقرأ سيرُ الملوك ونحن ننبهر، بل كما يقرأ المتعلّم دروسه ليعمل:

لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴿٢١﴾

سورة الأحزاب : ٢١

أُسوةٌ حسنة، أي قدوةٌ تُتبَع لا تُمدح فحسب. ولعلّ أعظم ما تُعلّمه لنا هذه الأيام أن الإنسان لا يصير عظيمًا في لحظةٍ كبيرة وحدها، بل يصير عظيمًا حين تكون لحظاته الصغيرة كلها، من الفجر إلى العشاء، على مقياسٍ واحد من الصدق مع الله والرحمة بالخلق. فلا يكفي أن نُعجب بيوم بدر، بل علينا أن نسأل كيف نقوم من الليل، وكيف نجلس مع أهلنا، وكيف نخاطب الأعرابي الذي أخطأ، وكيف نصدق حين يُغرينا الكذب، وكيف نثبت حين يتفرق الناس.

وقد لخّص الله رسالته ﷺ كلها في جملةٍ واحدة تصلح أن تكون عنوانًا لكل يومٍ من أيامه:

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

سورة الأنبياء : ١٠٧

رحمةٌ للعالمين: للغلام النائم في عرض الوسادة، وللزوجة التي تريد أن تُطيل النظر إلى الحبشة، وللأعرابي الذي بال في المسجد، ولكعبٍ في ليلته الخمسين، ولعدوٍّ يُدعى قبل أن يُقاتَل. فمن أراد أن يعرف كيف يمضي يومٌ كاملٌ في

طاعة الله وخدمة الخلق، فليضع هذه الأيام أمامه، وليبدأ غدًا من الفجر.
وصلّى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

أولًا: المصادر التي نُقل عنها نصّ الكتاب

١. القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم، بالرسم العثماني. وقد نُقلت الآيات في الكتاب من نسخةٍ رقمية للنص العثماني، وتمّت مطابقتها آليًّا على ما ورد في الكتاب.

٢. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ).

٣. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ).

ثانيًا: مراجع للتوسّع ومراجعة الألفاظ والسياق

هذه الكتب ليست مصدر الأحاديث المنقولة في هذا الكتاب، وإنما هي مظانّ يُرجع إليها لمن أراد شرح الألفاظ وبيان السياق التاريخي والتحقق من الروايات:

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ).

٢. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ).

٣. السيرة النبوية، لابن هشام (ت ٢١٣ هـ أو ٢١٨ هـ على خلاف).

٤. زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١ هـ).

ملاحظة على التوثيق

نُقلت الأحاديث في الكتاب بنصّها أو بمعناها القريب منه، وقد تُلخَّص بعض الروايات الطويلة. ولم تُذكر أرقام الأحاديث ولا أرقام الصفحات لاختلاف طبعات الصحيحين، والمعوَّل عليه في الرجوع هو اسم الراوي والكتاب والباب. ويُنصح بمراجعة كل رواية على الأصل قبل النشر، فإن العصمة لكلام الله وكلام رسوله ﷺ وحدهما.

ثبت مرويات الكتاب بحسب الفصول

فيما يلي مصادر الأحاديث المنقولة في كل فصل، كما وردت تحت كل حديث في موضعه:

مقدمة

متفق عليه عن أبي هريرة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم حراء

متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

خديجة

متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم الصفا

متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

وفاة أبي طالب

متفق عليه عن المسيّب بن حزن رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم الطائف

متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

ليلة الإسراء والمعراج

متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة ؛ متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ليلة العقبة

متفق عليه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن كعب بن مالك رضي الله عنه

يوم الهجرة

رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يوم بناء المسجد

رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

يوم المؤاخاة

رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

قبل أن تستيقظ المدينة

رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس ؛ متفق عليه عن عائشة والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن حذيفة رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه ؛ متفق عليه ؛ رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها

في بيته

رواه البخاري ؛ متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

على مائدته

متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه

في المسجد مع أصحابه

رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي قتادة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

يوم الجمعة ويوم العيد

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن جابر رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يوم الاستسقاء

متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

أيام رمضان

متفق عليه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

مع الصغار

متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

أعرابيٌّ يجبذ رداءه

متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

ليلة «اقرأ عليّ»

متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه

جنازتان وقبر

متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه

رحمةٌ تسع كل حيّ

متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن شداد بن أوس رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه

في السفر

متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أنس رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن جابر رضي الله عنه

آخر النهار

رواه البخاري ومسلم عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن حذيفة رضي الله عنه

في الحرب

رواه مسلم عن بريدة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما ؛ رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن البراء رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن البراء رضي الله عنه

يوم بدر: يوم الفرقان

رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ؛ رواه البخاري عن جبير بن مطعم رضي الله عنه

يوم أُحد

رواه البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن سهل بن سعد رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها

السيف المعلَّق

متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما

ليلة الأحزاب

رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه

يوم الحُديبية

متفق عليه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن المِسوَر بن مخرمة ومروان بن الحكم ؛ متفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ثُمامة بن أُثال

متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه

كتابٌ إلى هرقل

رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن أبي سفيان

يوم مؤتة

رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ رواه البخاري عن خالد بن الوليد رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

يوم فتح مكة

رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

غنائم حنين: الأنصار

رواه مسلم عن رافع بن خديج رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن صفوان بن أمية رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله عنهما ؛ رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

الخمسون ليلة

رواه البخاري ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه

شهرٌ في الغرفة

رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها

يوم عرفة

رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ رواه مسلم عن

عائشة رضي الله عنها

يوم النحر بمنى

رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ؛ رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ؛ متفق عليه عن أبي بكرة رضي الله عنه

آخر الأيام

متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ؛ متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها ؛ متفق عليه عن أنس بن مالك رضي الله عنه